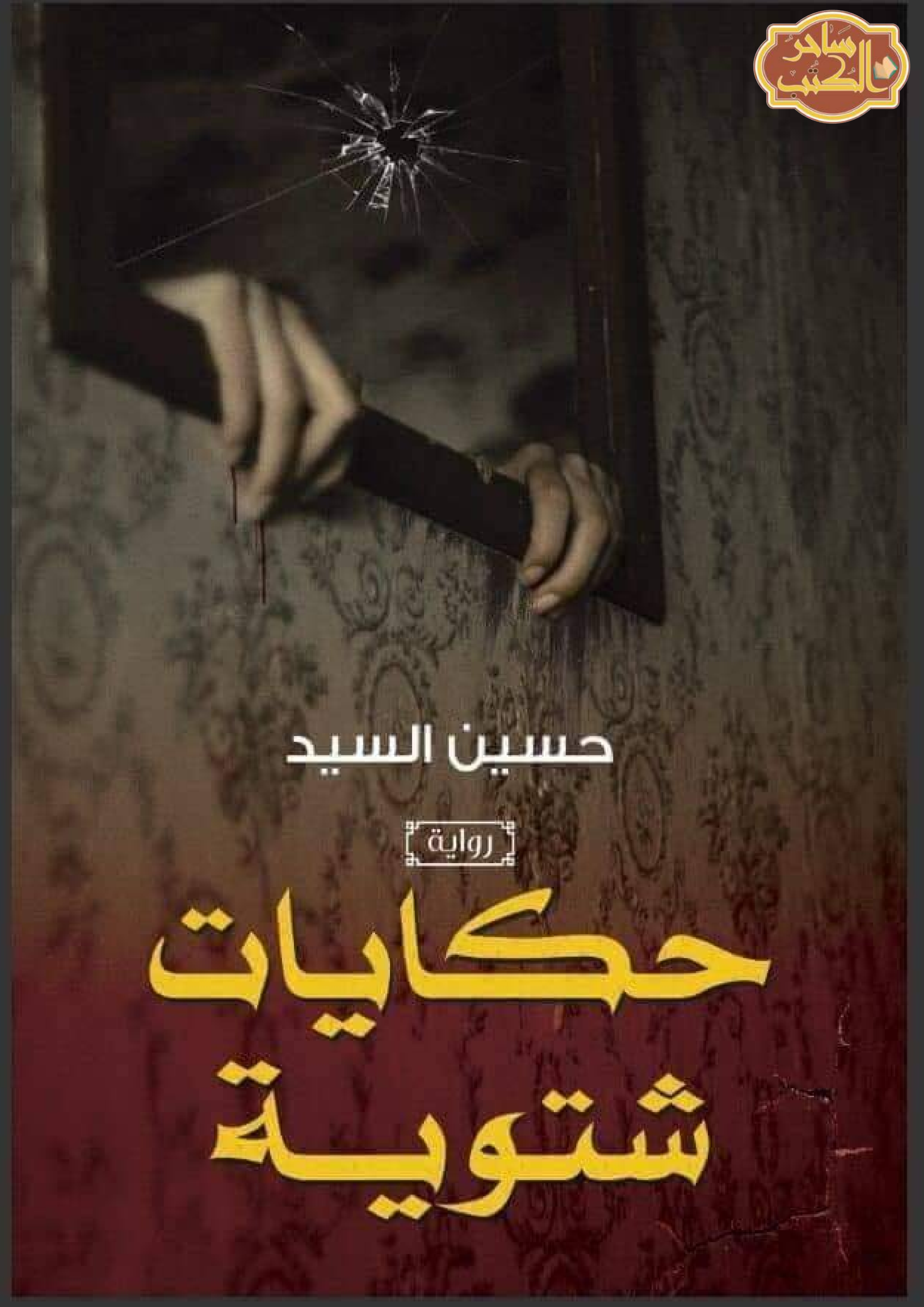

ساحر الكتب
حسين السيد
رواية
حكايات شتوية



د. حسين السيد

حكايات شتوية

رواية





إهداء

إلى تلك المرأة البسيطة التي منحتني كل شيء

إلى أمي



المرآة

ما تركته لي جدتي من متاع وإرث غريب كان عجيبًا ومخيفًا!

كانت جدتي تعمل بالسّحر، ورغم أن هذا الأمر بغيضٌ كريه إلا أنها لم تجتهد في إخفائه أو حتى خالجها الخجل يومًا منه.

كان هناك ذلك القناع البدائي المليء بالخطوط الزرقاء الطولية والبصمات الدموية الغريبة، وفجوتي العينين المجوفتين في أعلاه كالمغارات المظلمة الغامضة. زعمت جدتي أنه قناع يتيح لها الاتصال بالعالم الآخر واستحضار الأرواح الفانية القديمة لأناس غادروا الحياة من عقود وقرون، لكن سِرّه الحقيقي كان شنيعًا.

وجدت بين متاعها بلورة سحرية قرمزية اللون سرعان ما تضيء بضوء فيروزيٍّ عجيبٍ إذا اقتربت منها أنامل جدتي، كما كان هناك الكثير من التماثيل البدائية الوثنية المخيفة التي تُشبه أصنام الجاهلية، أضِف إلى هذا العديد من المخطوطات القديمة ذات الأوراق المصفرة والمكتوبة بالسريانية كما أعتقد، والتي لا أدري كيف كانت جدتي تقرأها.



وجدتُ في أغراضها كذلك الكثير من الأغراض الشيطانية مثل الأحجبة المطوية، وتراب الموتى، وشحوم المشنوقين وأجنة لم يكتمل نموها، وعطور وزيوت كريهة الرائحة.

أما أشنع ما تركته فكان تلك اليد المقطوعة من الرسغ والتي حنطتها وكانت تطلق عليها يد المجد.

ماتت جدتي وقد خلَّفت من ورائها إرثًا من العداء والدم، وشياطين من الإنس والجن يسعون خلفي ويبغي أغلبهم القضاء عليَّ.

ومن بين أغراضها كانت تلك المرآة العتيقة، ذات الإطار الفضي المتسخ الحواف والممتلئ عن آخره بنقوشٍ ورموزٍ وأسهمٍ وخطوط تبدو كالطلاسم. كانت مرآة عجيبة بشكلها البيضاوي الذي لم أعتَدْه في المرايا وسطحها المنطفئ الذي لا يحمل أي انعكاسٍ لما حولها.

الغريب أن هذا ليس حالها على الدوام. أحيانًا تعود لعملها الأزلي فيصير سطحها لامعًا برّاقًا، لتعكس صورة أي شيء أمامها، حيث أرى فيها انعكاس وجهي وهو ينظر إليَّ ويتبعني في كل ما أقوم به من حركات. لكن المخيف هي تلك المرات النادرة التي أرى فيها داخلَ المرآةِ وجوهًا أخرى عجيبةً لا أعلم من يكون أصحابها وهي تنظر لي من خلف المرآة، وترمُقني في دهشةٍ وكأنها تتعجب من وجودي.

في المرة الأولى التي حدث فيها هذا، أصابني الهلع كالموت، وهرعت من أمامها نحو حجرتي وقلبي ينتفض بلا توقف، وقد أزمعت ألا أنظر إليها ثانية. إن حياتي هادئة الآن كما لم أعهدها منذ زمن بعيد، وقد ماتت جدتي، وانتهى للأبد عبءُ العناية بها في



مرضها الغريب الذي لازمها في عامها الأخير، حيث واجهت الكثير من الأفعال الشيطانية التي حدثت في مرضها ووقت موتها.

لأبتعد عن كل أغراضها اللعينة وأتجاهل حجرتها وكل شيء ملعون فيها.

لكن الفضول حيوان لحوح لا يمل. ولهذا وبعد أيام من تساؤلات بلا إجابات ورغبة حمقاء في معرفة حقيقة تلك الوجوه التي ترمقني من خلف المرآة، عدت للحجرة ثانية!.

أشعلت الضوء وتفقدت الفراش العتيق الذي لم أقربه منذ وفاة جدتي، ونظرت بحذر إلى الأغراض العجيبة الملقاة بإهمال في كلِّ مكانٍ، قبل أن يزحف بصري نحو المرآة.

كانت قابعة في مكانها ووجهها اللامع لا يواجهني. ترددت للحظة قبل أن أسير نحوها، ثم درت حولها حتى صرت في مواجهتها.

في البداية ظل سطحها معتمًا لا يعكس شيئًا، لكن وبعدَ دقائق من الترقب والانتظار أمامها، عادت الحياة لها، وكالسحر تلاشت العتمة وجاء البريق العجيب، حاملًا معه الوجوه نفسها التي لا أعلم من يكون أصحابها، ولم أقدر على تمييز أي زمن ينتمون من ملابسهم.

رحت أرمق وجوههم بعينين مرتجفتين. كانوا ثلاثة وجوه لرجال ثلاث بالغين. أولهم كان أصلع الرأس تمامًا، بوجه ممتلئ وعينين ضيقتين كالصينيين، والآخران قد احتفظا بشعر رأسيهما، وإن اشتعل الرأس شيبًا في أحدهما فصار أبيضَ كالثلج رغم أن وجهه لا يحمل عُمرًا يتخطى الأربعين عامًا حتماً. والآخر ما زال شعر رأسه يحتفظ بسواده وإن ميزه عينان حادتان نافذتان،



وفم متقلص بشدة تحاوطه الكثير من التجاعيد، ووجه رغم وسامته يشع بالشر.

حاولت أن أستحضر بعض السلام والطمأنينة لنفسي بتلاوة آية الكرسي وتكرارها، ورفعت صوتي لتتردد الآيات الكريمة في جنبات الحجرة:

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

انتظرت أن تختفي الوجوه لو كانت تنتمي لشياطين ما، لكنها ظلت على حالها وهي ترمقني في هدوء وصبر دون أن يبدو عليها أي اضطراب أو قلق. أدركت أنهم ليسوا شياطين طالما لم يفزعهم القرآن. اقتربت بوجهي من سطح المرآة، لتتسع عيناي في ذهول، حين تتحرك رؤوسهم للمرة الأولى، فيتبادلون النظر إلى بعضهم البعض بشيء من العجب.

إنهم يرونني إذًا، وإلا لماذا بدت تلك الدهشة على خلجاتهم حين اقتربت بوجهي من المرآة. كان هذا كافيًا هذه المرة وقلبي ينبض بقوة وأنفاسي تتلاحق كأنما أعدو في سباق طويل.

وفي اليوم التالي، فشلت عن إبعاد تلك المرآة عن عقلي وتفكيري، فلم أذق طعم النوم ولو للحظة، ووجدت نفسي أعود إليها ثانيةً. كان الوقت ظهرًا حينها وكانت السماء خارج البيت تمطر منذ الصباح دون أن يلوح أنها تنوي التوقف عن هذا قريبًا.

لا أدري من أين أتت تلك القشعريرة التي هزتني بقوة، وهل كانت بسبب تلك البرودة القارسة، أم أنها بفعل الترقب والإثارة؟

أشعلتُ ضوء حجرة جدتي وتجاهلت الأغراض الأخرى وتقدمت نحو المرآة في إصرار، وأنا أتساءل، هل ما زالت الوجوه الثلاثة على حالها بانتظاري؟ وهل يشعرون بالإثارة مما يحدث كما أشعر، أم أنهم مجرد صورة عجيبة تعكسها المرآة؟!

هذه المرة كان السطح برّاقًا لامعًا وعكسَ ملامحي على الفور. تفقدت ما على سطحها من صورٍ؛ فلم ترَ عيناي غيرَ جوانب الحجرة المنعكسة في المرآة.

كانت مرآة تتصنع البراءة وتنكر الغرابة!

لم أشعر باليأس، وقبعت أمامها في صبرٍ، بانتظار أن تمل لعبة البراءة هذه وتأتيني بالرجال الثلاثة الذين رأيتهم من قبل.

دوى في أذني صفير الريح المثقلة بالأمطار وهي تضرب شباك الحجرة بقسوة. وازداد الطقس برودة، ولم أدرِ كم مضى من الزمن قبل أن يأتي التحول. انتبهت إليها وقد تعكر سطحها بغتة، ثم ظهر الرجال الثلاثة. كانوا يرمقونني بلا مبالاة وكأنما لا يدهشهم وجودي.

انتقلت عيناي بين وجوههم وتجمدت أعينهم على وجهي كأنما تبغي اختراقه، ثم قفزت إلى عقلي فكرة ما. رفعت حاجبي الأيمن لهم، فضاقت عينا الرجل الأصلع ذي الوجه الصيني بينما ظل الآخران في لا مبالاتهما.

زحفت الإثارة نحو قلبي ثانيةً فحركت سبابتي نحوهم مُشيرًا لهم، فهز الرجل الحاد الملامح رأسه ببطءٍ، كأنما لا يروقه ما أقومُ به.



فسحبت يدي على الفور، وبالكاد تمالكت نفسي، وقد كدت أن أتقدَّم له باعتذار سخيف.

في الواقع كنت أشعر بالفزع من عينيْ هذا الرجل اللتين يتواثب الشر منهما. وبينما يزداد توجسي وجدت نفسي أقول بصوت مهتز مشبع بالتوتر:

- مَن أنتم؟

هنا تعكر سطح المرآة ثانية وغمرها ضبابٌ رماديٌّ واختفى الثلاثة، وكان آخر ما اختفى فيها وجه الرجل المخيف الغاضب.

غادرت الغرفة بعد حين، وقد مللت النظر إلى سطحها الذي صار معتمًا هذه المرة، وفي الخارج استقبلني الظلام المتسرِّب من خلف نافذة الصالة الزجاجية، وعاد الذهول ليغمرني، كيف استحال النهار الذي كان هناك منذ أقل من ساعة إلى هذا الليل المظلم، نظرت إلى الشوارع المبتلة بالوحل والمياه، والتي هجرها المارة، وأفكِّر في شرود، كيف مضى كل هذا الوقت وأنا أحملق في المرآة دون أن أشعر؟

تذكرت كل الصلوات التي فاتتني، فتوضأت وصليت ببالٍ مشغولٍ وذهن غائب. أتناول بعض الشاي الساخن فلا يذهب البرد الذي أحسه، والتليفزيون الذي يعرض فيلمًا أجنبيًّا -للجميلة أنجلينا جولي التي أعشقها- لا ينجح في إبعاد ما جرى من المرآة اليوم عن ذهني. أطفئ التليفزيون وأشغل الراديو، ولا أنتبه لصوت عبد الحليم الذي كان يشدو حينها.

المرآة اللعينة نجحت بالفعل في غزو عقلي والسيطرة على



ذهني وأسر تفكيري. تتوالى عشرات الأسئلة على رأسي بلا أملٍ في إجابات تروي أرض الفضول الظمأى للمعرفة. مَن هؤلاء، وأين يكونون، وهل يشعرون بي، وهل يحملون شرًّا من أجلي؟!!

وهل.. وهل..؟

ويكاد عقلي أن يتفجر من التفكير.

النوم لا يحمل لي غير الأرق والسهاد، والشارع المبتل المظلم يمنعني من النزول إليه، محذرًا إياي من كارثة لو فعلت، وخاصة وقد راحت رياح الشتاء المشبعة بالصقيع ترتع في الطرقات بلا رادع.

وأغادر الغرفة يائسًا من نومٍ لن يأتي، لأعيد إشعال التليفزيون للمرة العاشرة في هذه الليلة الطويلة التي تأبى أن تنتهي. أمُرُّ على القنوات المختلفة دون أن تنجح إحداها في إيقافي حتى تنتهي القنوات الألف التي أتصفحها لأطفئه ثانية.

وحين أعود لحجرتي ثانيةً، أرى المرآة هناك معلّقةً من إطارها الفضي على الحائط في مواجهة فراشي تمامًا، كأنما ترغب في لفت انتباهي والتيقن من أني سأنتبه لها؟! بالطبع كان من المستحيل ألا ألحظها.

لم أكن أنا بلا شكٍّ من جلَبَها للحجرة، ولم تكن الأشباح التي لا أؤمن بوجودها هي من فعل بالفعل، فكيف أتت المرآة إلى هنا؟!!

وكان الثلاثة بداخلها ككل مرة، يلتفون هذه المرة حول طاولة خشبية ويلعبون الورق كأنما يستمتعون بوقتهم، ومن المرآة انبعثت موسيقى تركية قديمة من جرامافون عتيق لتضفي على المشهد رعبًا لا يُوصف.

أتأملهم وأنتظر أن ينتبهوا إليّ فلا يفعلون. أُحرِّك يدي نحوهم



ثم ذراعي، وأحاول أن أحدثهم دون أن يعبروني انتباهًا، كأنما لا يشعرون بي.

أيكونون في عالمٍ آخر لا أعلمه؟ وهل تؤدي تلك المرآة الغريبة لهذا العالم؟

إنها فكرة تصلح لقصص الخيال والرعب.

وبالرغم من عدم منطقيتها، إلا أنني مددت أناملي نحو سطح المرآة لأتحسسها متوقعًا أن أغوص بداخلها، لكن كفي لامسَ السطح البارد للزجاج دون أن يحدث شيء. هل كنت أتوقع أن تخترق أناملي المرآة كما يحدث في الحكايات؟

يبدو أنني أفقد عقلي.

أشعر بالإعياء، وأفكر في أن أعيد المرآة لحجرة جدتي ثانية. لكنَّ خوفًا مبهمًا منعني، وفكرت في تغطية سطحها بملاءةٍ ما، وأنا لا أتخيل أن أنام على فراشي، وهؤلاء ما زالوا في عالمهم الغامض يراقبونني.

قمت بتغطيتها ثم رقدت في الفراش ووجهي ينظر نحوها، والهواجس لا تفارق مخيلتي، وأنا أتوقع أن يخرج منها فجأة ما يخيفني.

الهواء البارد الذي استحال عاصفة ظل يضرب النافذة، والوقت الثقيل يأبى أن يمضي وعيناي ترفضان الاستسلام للنوم، حتى يصلني صوت المؤذن داعيًا لصلاة الفجر. وحين ينبلج الصباح يأتي حاملًا على كفيه النوم لأجفاني، فأنام.

وحين أفتح عينيَّ أجد الثلاثة يرمقونني شباتٍ من خلف المرآة. تنتقل عيناي بفزعٍ نحو الأرض حيث قبعت الملاءة التي غطيت بها المرآة بالأمس. أرفع رأسي لأرى الرجل المخيف حاد النظرات



وهو يهز رأسه ببطء، وكذلك سبابته، كأنما يأمرني ألا أكرر ما فعلتُه. أنتفض من الفراش، وألهث كمجرو يعدو، وأحتاج لبعض الوقت قبل أعود قادرًا على الحديث ثانية.

«ماذا تريد مني؟».

أقولها بصوتٍ مختنقٍ، فيهز الرجل القاسي رأسه لأسفل، ويبتسم ابتسامة ساخرة ولا يرد. لم يكن وحده من فعل هذا في الواقع، بل ابتسم الثلاثة نفس الابتسامة الشريرة التي لم أشعر بالراحة لها.

أهز رأسي لأتأكد أنني لا أحلم، وأن ما يحدث ليس أوهامًا أتخيلها. لكن الأمر يبقى على حاله، ثم تتلاشى ابتسامة الجميع ويعودون ثانيةً ليرمقوني بنظراتهم النافذة الحادة التي تخترقني.

أغادر المكان وأخطو نحو الحمّام لأُفرغ مثانتي، ثم أعود لحجرتي محاولًا تجاهل المرآة وعقلي المشوش يعجز عن التفكير في حلٍّ ما، لكنْ عيناي تتسللان نحو المرآة رغمًا عني لأكتشف أن الأمر قد اختلف كثيرًا هذه المرة.

لم يكن الثلاثة كالسابق في قلب المرآة، بل كان هناك حديقة غنّاء يرتفع خلفها قصر منيف، والرجل المخيف ذو النظرات المرعبة يعدو على العشب وهو يرتدي ملابس رياضية. أراقبه وهو يعدو لبعض الوقت قبل أن يتوقف وقد اعتصر صدره بكفه، وأغلق عينيه في ألمٍ قبل أن يسقط. وبعد لحظات هرع الكثيرون من كل مكان نحوه لنجدته، لكنه ظل يتألم ويده لا تغادر صدره إلى أن همدت حركته بغتة، ثم ارتفع العويل والصراخ من حوله. هل هي نوبةٌ قلبية أودت به؟ بدا الأمر كذلك.



هنا عادت المرآة لحالها، وتعكَّرَ سطحها ثانية.

أفكر فيما رأيته ولا أدري ما الذي تصبو إليه تلك المرآة، ولماذا تريني ما حدثَ. يرن الهاتف فأرد على ريم. زميلتي بالكلية وحبيبتي وخطيبتي كما آمل أن يحدث. تشكو بدلالٍ أنني صرت أتجاهلها، وأجيبها بإرهاق لا حد له أنني مجهد. تسألني بخوف حقيقي إن كنت مريضًا، فأجيبها بلا لباقة وأنا أغلق الهاتف في وجهها دون أن أجيب سؤالها، أني سأعاود الاتصال بها لاحقًا.

لا أدري لماذا شعرت بالضيق من اتصالها هذا، ولماذا نفرتُ من حديثها هكذا؟ وأنا الذي طالما تمنى قبل شهور مثل هذا الاتصال والاهتمام.

أصلي وأتناول بعض الطعام، ثم يدفعني هاتف غامض في رأسي للعودة للمرآة ثانية. أرمقها فأجد الثلاثة بانتظاري في وضعهم القديم يرمقونني بثباتٍ ونظرات نافذة تخترق أعماقي، فأحملق أنا الآخر في وجوههم بثباتٍ مماثلٍ.

لا ألتفت للوقت، وكما حدثَ بالأمس أجد الليل وقد هبط فجأة دون أن أنتبه، وأدرك أنني قد مكثت هكذا لساعات طويلة أمام المرآة أرقبهم ويرقبونني. وبينما تتقلص خلجاتي بدهشة لما جرى، ترتسم على وجوههم ابتسامة ساخرة قبل أن تخفيهم المرآة ثانية، وتعود مجرد مرآة عادية بريشة سطحها معتم.

وفي اليوم التالي أرى الرجل ذا العينين الضيقتين والرأس الأصلع والملامح التي تشبه الصينين في بيت غريب. كان يتشاجر مع امرأة بعينين ضيقتين تشبهه كثيرًا، ثم وجدتها تشير بكفها إلى رأسه



الخالي من الشعر بسخرية فيصفعها، تبتعد عنه غاضبة، فيتجه لمرآة صغيرة على طاولة بجواره. يلتقطها وينظر خلالها إلى رأسه بحسرة ويتحسس بباطن كفه رأسه الأملس ثم يبكي.

وتتعكر المرآة مرة أخرى، لأرى هذه المرة الرجل الثالث ذا الشعر الأبيض كالثلج، وأدرك على الفور لماذا لم تعلق نظراته بعقلي، ولماذا لم ألتفت إليه من قبل كزميليه. لقد كان أعمى كما أظهرته المرآة، يتقدمه ويقوده كلب صغير مربوط من عنقه بحبل يقبض عليه بكفه. عيونه الميتة قبلًا لم تنجح في لفت انتباهي ولم تألُ المرآة جهدًا في نقل معاناته، في عالم قاسٍ لا يرحم الأصحاء، فما بالنا بالمعاقين؟!

وأعتزل العالم كله، وتصير المرآة عالمي. أستيقظ في الصباح كل يوم، لأمكث أمامها طوال اليوم دون أن أشعر بالوقت. ومن حين لآخر كنت أهبط إلى الشارع لشراء بعض الطعام قبل أن أعود إليها متعجلًا، كي لا يفوتني منها لحظة واحدة.

حينها أهملت دراستي ولم أعد أذهب للجامعة.

وتتصل ريم بي ألف مرة كل يوم ولا أهتم بإجابتها. يحاول خالد صديقي أن يعلم لماذا لم أعد أرتاد المقهى، فيتصل بي هو الآخر كثيرًا فلا أجيبه. وحين يئس من ردي راح يرسل إلى هاتفي رسائل كثيرة تلح عليَّ في الرد.

وتزداد خطواتي ثقلًا ويزداد شعوري بالإجهاد كل يوم. صرت عاجزًا على الصعود لشقتي في الطابق الثالث دون أن ألهث طويلًا. صارت الرؤية أكثر صعوبة حتى صرت أصطدم أحيانًا بالجدران دون أن أراها. لكني رغم هذا لم أفارق المرآة.



أرى الرجل حاد النظرات وقد صار أكثر قوة ولم يعد يعاني من نوباته القلبية وهو يمارس رياضته. ويعود الرجل الصيني إلى سعادته وهو يتحسس الشعر الخفيف الذي عاد مرة أخرى لينبت في رأسه. وتخف معاناة الرجل ذي الشعر الثلجي وقد استرد بعض بصره فلم يعد بحاجة لأن يقوده كلبه.

وتصرخ ريم حين تراني وقد أتت إلى منزلي لترى لماذا ابتعدت عنها. أشعر أنها لم تعرفني في البداية، وأعلم أن بصري الذي صار ضعيفًا لم يتبين ملاحتها التي ذهبت بعقلي من قبل.

ثم تهتف في وجهي وتسألني في جنونٍ وغير تصديق:

- « كيف صرت هكذا؟ أنت مريض بلا شك، لماذا لم تذهب للطبيب؟ »

ولا أفهم ما تقصده. أنا ما زلت أنا، ولا أشعر أبدًا رغم كل هذا بالمرض.

لا أدرى بماذا أجبتها، ولماذا غادرت المكان وهي تعدو من أمامي، كأنما تفر من الجحيم، باكية منتحبة. وأعود للمرآة لأرى الأصدقاء بانتظاري. يبتسمون جميعًا تلك الابتسامة الساخرة، ونتبادل بعدها النظرات النافذة التي لا بُدَّ أنها تنومني بطريقة ما فلا أشعر بالوقت.

وهالتني مرآة الحمّام حين نظرت إلى وجهي فيها ذات صباح - للمرة الأولى منذ زمن بعيد- بما تعكسه. كنت شخصًا آخرَ لا أعرفه لكنه يحمل بعض ملامحي. أرى رأسًا يكاد أن يخلو من الشعر. أرى عيونًا باردةً في طريقها للعمى. أرى جسدًا هزيلًا وصدرًا يعلو ويهبط لاهثًا بلا توقف يشي بقلب مريض.



وأدرك في لحظة صفاء متأخرة ما أصير إليه.

إنهم يسلبونني ما يفتقدونه!!

لا أدري مَن هُم ولا كيف يسرقون شبابي وصحتي وأي سحر أسود ذلك الذي يستعينون به، لكنني أرى نتيجة عملهم المشئوم منحوتة في خلجاتي ونفسي.

وأفكر في الحل..

وكان الجواب سهلًا..

عليَّ أن أتخلص من المرآة!

لكنني لن أجازف بالتخلص منها في مكانٍ قد يجعل أحدًا آخرًا يعثر عليها. عليَّ أن أتخلص منها في مكان لا وسيلة فيه للعثور عليها ثانية.

أتجه إليها وأتجاهل قاطنيها ولا أعير تلويحهم ولا اعتراضهم اهتمامًا. أحاول أن أخلعها من مكانها بالحائط لكني أعجز.. لقد صرت واهنًا ضعيفًا بصورةٍ لم أتخيلها. وأرى النظرة الشامتة في عيون الثلاثة.

وأفكر ثانية.. وكان الحل في خالد.

اتصلت به ليأتيني متعجبًا من هيئتي. أتجاهل حيرته وأسأله أن يقسم بالله أن يقوم بما سأطلبه منه بلا أسئلة أو اعتراض. يرمقني صامتًا بحيرة لبرهة، وفي النهاية يرضخ لرغبتي، ويبتلع فضوله أمام إصراري وإعيائي. أطالبه أن يدفن المرآة في مقبرة ما دون أن يشعر به أو يراه أي أحد.

أرى الذهول في وجهه لكني أذكّره بقسمه الذي أقسمه للتو، فيكف عن دهشته. يحمل المرآة التي أحكمت غطاءها ويرحل بها،



وفي اليوم التالي جاءني، وأخبرني أنه قد دفنها ليلًا في مقبرة مهجورة قديمة من مقابر اليهود بالبساتين.

أشكره وأذكره بوعده أن يحتفظ بالأمر سرًّا، وأعده أن أفسر له يومًا ما كل شيء.

وتبدأ الأمور في التحسن. أسترد بصري، ويتحسن مجهودي ويقل لهاثي، ثم يستطيل شعري ثانية ويعود ليملأ رأسي. وأدرك أنني أسترد ثانيةً ما حاولوا سلبه منّي.

كما أعلم أنني لدهرٍ طويلٍ لن أقرب حجرة جدتي الراحلة وأشياءها الغريبة الرهيبة!

إن تركتها ثقيلة للغاية. والفضول هو أسوأ ما أتصف به، ولهذا أعلم أنني سأعود للحجرة يومًا ما. لكن حتى يأتي ذلك اليوم سأحاول أن أصحّح ما اقترفته من حماقات في الأيام السابقة من أخطاء..

أولها بالطبع أن أستعيد ريم.

ترى هل تغفر لي ما فعلته بها؟

لكن السؤال الذي لم أعرف إجابته هو:

هل انتهى الأمر حقًّا، أم هناك ما لا أعرفه؟

بالطبع لم يكن متاحٌ لي أن أعلم أن رجب الحاوي، ذلك البلطجي الذي يسكن المقابر ويختفي بداخلها من الشرطة، كان يراقب خالد وهو يدفن المرآة. انتظره بمكرٍ حتى ينتهي من عمله، وقد أيقن أنه لا بدَّ يخفي شيئًا ذا قيمة، وحين غادر خالد المكان أسرع نحو القبر ونبشه ووجد المرآة القديمة، ورغم إحباطه عما وجده إلا أنه أدرك أنها قد تجلب له بعض المال لو باعها بإطارها الفضي هذا.



لكن المرآة كانت عجيبة وما يراه خلالها كان مثيرًا للغاية، حتى إنها خلبت لُبّه فلم يعد يطيق البعد عنها. ثم شاركته الأمر زوجته قبل أن يلحقهما طفلاهما.

الآن يقبع ورباعيتهم أمام سطحها طوال الوقت. وبداخل المرآة احتشدت الكثير من الوجوه. كانوا أكثر من إحصائهم. وبينما تفقد عائلة في كل لحظة شيئًا من قوتها وصحتها يصير الأمر أكثر بهجة بالمرآة.

كان الكل في المرآة في انتظار التحرر من أسرها.

في الواقع لم يعد هناك وقتٌ طويلٌ قبل أن يحدث هذا.

❋ ❋ ❋



القط الأسود

لم أحب يومًا ذلك القط الأسود، ولم أتقبل أبدًا أن يحيا معي في بيتٍ واحدٍ، وتحت سقفٍ واحدٍ.

كان قط جدتي الأثير وحيوانها المدلل الذي يلازمها طوال الوقت كظلها. قطها الذي حاولت يومًا ركله لسبب لا أتذكره الآن، فرأتني قبل أن أفعل، لتصرخ في وجهي كذئب مجنون، ثم عاقبتني بالحبس في حجرتي في الظلام ليومين كاملين دون طعامٍ أو ماء.

كان هذا القط سِرًّا آخرَ من أسرار جدتي التي لا تنتهي.. وكم كانت أسرارها لا حدَّ لها،

كثيرة ومخيفة!

كنت أكرهه لأسباب عدة: أولها أنني لا أهوى الحيوانات، لا أحبها ولا أقربها. في الحقيقة كنت أخافها جميعًا وأخشاها وأتجنبها ما استطعت.

كما كان ذلك القط أسود اللون كالحبر، وكان هذا كفيلٌ لأن أكرهه كالجحيم. فطالما كرهت اللون الأسود وما يعنيه لي من خوفٍ وليلٍ وظلامٍ طالما عوقبت به. ووحدة طالما عانيتها وسئمتها.



كانت حياتي مع جدتي صعبة لا تناسب أبدًا طفلًا صغيرًا أو صبيًا مراهقًا أو حتى شابًا في مقتبل عمره. لم أظفر وأنا طفل بصديق واحد، وقد كان الكُلّ يعايرني بجدتي التي يرونها ساحرة شريرة، ويرونني ابن الساحرة.

كنت صغيرًا، وكانت مطاردة أقراني تخنقني، وما ينعتوني به كان يوترني. أتشاجر مع أحدهم وقد راح يضايقني ويطاردني ويعايرني، لأدرك بعدها أن المعركة خاسرة لا محالة، وأنه لا حظَّ لابن الساحرة مع هؤلاء. فالكل حينها يتكالب عليّ، والصفعات والركلات تأتيني وقتها من كل مكان، لتصيب كل جزء من جسدي. ولو حاولت الهرب فهناك القذف بالحجارة والثمار التالفة.

كنت ابن الساحرة الشريرة، وطفل المدرسة المنبوذ المكروه، وكان انتهاك عزلتي ووحدتي ودمائي مباحًا للجميع دون خوف رادع، أو خشية من عقاب.

ما زلت أكره تلك الأيام المشئومة وذكرياتها المؤلمة. وحمل القط بعضًا من تلك الذكريات اللعينة!!

*****

كنت أخشى ذلك القط الأسود منذ اليوم الأول لانتقالي للعيش في كنف جدتي. كان ضخمًا سمينًا حسن التغذية، رغم أني لا أذكر أنني رأيته يومًا يأكل أو يشرب. كما كان نادر المواء حتى تخيلته في البداية أخرسَ. لكنه بعدها أصدر غير مرة مواءً دحض ظني هذا.



وكانت هناك عيناه. لم أحبهما ولم أتحمل يومًا النظر إليهما. لم أعلم يومًا ما هو لونهما الحقيقي. أهو الأصفر الفسفوري. أم تراه الأخضر الداكن، أم أنه الأزرق السماوي. أم هو الأحمر الناري.

إنني لا أعرف!!

فكل تلك الألوان رأيتها تتبدل في عيني ذلك القط الأسود اللعين طوال الوقت.

لازم جدتي في حياتها كظلها. ينام على فراشها في المساء، ويستكين بين قدميها هادئًا وهي تعد تعويذة ما أو تعالج ممسوسًا، أو تمنح أحد زبائنها حجابًا أو رقًا سحريًا. وفي أحيانٍ أخرى نادرة كانت تطالبني بمغادرة حجرتها ومن خلف الباب يأتيني مواء القط ممطوطًا طويلًا كبكاءِ طفلٍ بائسٍ، كأنما يتألم أو كأنما يشاركها في طقوسها الرهيبة.

ما الذي كان يحدث في تلك المرات النادرة ولماذا يصدر القط أصواته تلك التي تشي بمعاناته؟ كان ذلك سرًا من الأسرار التي لم أعرِفْ أبدًا كُنْهَها.

يقولون إن السحرة الحقيقيين يلازمهم دومًا قِطٌّ أسود. وقد قرأت هذا غير مرة. يقولون إنه قد يكون تجسُّدًا لأحد الجان أو الأرواح الشقية الشريرة أو الشياطين الملعونة. يقولون إن وجوده لازمٌ لاتصال السحرة بعوالمهم السفلية، وأن تلك القطط السوداء رُسل أولئك السحرة لعالم الجان والشياطين. قرأت كل هذا وأكثر وكم شعرت بالفزع حينها. كنت في مراهقتي في ذلك الوقت، ولو امتلكت أمري لما مكثت بالدار حينها لحظة واحدة.



كنت طوال الوقت أتساءل: هل يكون ذلك القط اللعين الذي أكرهه كالجحيم شيطانيًا متنكرًا أو أن هناك روحًا بائسةً مسجونة في بدنه!!

رحت حينها أعامله بحذرٍ، وأتحاشى أن أجتمع به في البيت منفردًا. العجيب أنه بدا وكأنه أدرك خشيتي هذه منه فراح يستمتع بزيادة توجسي منه. أنظر إليه فأرى في عينيه نظرة تحد ساخرة. ولولا خشيتي أن يتهمني أحدٌ بالجنون لأقسمت إن ابتسامة ساخرة ظافرة ترتسم على شفتيه وقتها. شعرت وكأنه يحدثني حديثًا خفيًا قائلًا:

- «نعم. لست مخطئًا فيما تظنه. أنا بالفعل شيطان. هل تخشى هذا؟!»

ثم تشعر جدتي بمخاوفي، فتلوّك طعامها ببقايا أسنان مهشمة نخرة، وتقول لي محذرة:

- «إياك والقط. دعه في شأنه ولا تقربه، أو تفكر في إيذائه»

ولا أدري مَن أخبرها أنني قد أبغي أمرًا كهذا. إنني أفر منه دومًا، كأنه الوباء. لو شئت الإنصاف لطلبت جدتي القط أن يدعني وشأني.

فكرت بعدها طويلًا في التخلص منه، ورسمت في عقلي عشرات الخطط لتنفيذها. وكانت إحدى هذه الخُطط ممكنة. ففي مساء الخميس من كل أسبوع، تفارق جدتي المنزل، واعتادت أن تأمرني ألا أبرحه حينها، حيث تقضي ليلتها في مكانٍ ما، ولا تعود إلا في الصباح. لم أعلم أبدًا أين تذهب ولم أرَ يومًا محتويات الأجولة التي تعود بها في كل مرة. خمنت أنها أغراض تحتاجها لممارستها السحرية القميئة، لكنني لم أجتسر على سؤالها عنها.



المهم أنني فكرت في حمل القط قسرًا، وإلقائه في مكانٍ بعيدٍ حيث لا يمكنه بعدها العودة للدار ثانية. يمكنني بعدها أن أتظاهر البراءة أمام جدتي، بل ويمكنني أن أقسم لها إنني لا أعلم مكانه. سأخبرها أنه ربما فارقَ الدار برغبته، وربما جذبته قطة أخرى ليهرب معها.

أزمعت التنفيذ في الأسبوع التالي. جلبت حبلًا لأقيده به، وجوالًا صوفيًا لأضعه به، وقفازًا جلديًا كي لا يخدشني بمخالبه وأنيابه لو فكر في المقاومة. غادرت جدتي المنزل وهي ترمقني بنظرة تحريني، وانفردت بالقط. جلبت الأغراض وارتديت القفاز وتقدمت نحوه.

رمقني بنظرة عجيبة ورفع ذيله نحوي كأنما يحذرني من مواصلة محاولتي الخرقاء. وحين أيقن إصراري على المواصلة بخ في وجهي وأصدر مواءً غامضًا مخيفًا قبل أن تتلون مقلتيه باللون الأحمرِ الدموي. بدا كالشياطين في تلك اللحظة. ورغمًا عني سقطَ الحبل من كفي وارتجفت قدماي وراح جسدي ينتفض.

هربت من أمامه، وأحكمت إغلاق حجرتي التي لذت بها، ورحت على فراشي أرتعد وأرتعش، وظل القُطّ طوال الليل يطلق مواءه الرهيب مُعلنًا انتصاره. وفي اليوم التالي صرخت جدتي في وجهي فور أن عادت:

- «إياك أن تكررها ثانية. تعلم عن ماذا أتحدث أيها الصبي الغبي، في المرة القادمة لن يرحمك»

لا أدري كيف علمت بما أنتويته، لكنني لم أكن بحاجة لهذا التحذير. بالفعل لن أفعلها ثانية!



ثم ماتت جدتي بعد تلك الحادثة بأعوامٍ لكنها قبل أن تموت لم تنسَ أن تحذرني:

- حافِظ على القط كعمرِكَ. لا تتخلص منه، وإياك أن تؤذيه. سيصيبك شر لا قبل لك به لو فعلت. أتمنى أن تدرك هذا!

وماتت بعدها في صخبٍ مفزعٍ وبل كدت أن ألحقها في ذلك الوقت هلعًا من الأهوال التي جرت حينها. كان القط حاضرًا بقوة في تلك الأيام الرهيبة. وصارت عيناه حمراوين متوهجتين كاللهب طوال الوقت، وهو يُطلق مواءه الغريب الحزين بلا توقف. وما إن فارقتها الحياة حتى اختفى من البيت كله كأنما فارق المكان مع روحها.

لم أعبأ به حينها وتشاغلت بدفن جدتي. غادرت البيت ليومين حيث مكثت في إحدى قرى سوهاج حيث مقابر ومنشأ عائلتي، وحين عُدت رأيته بالمنزل وأدركت أي أيام سوداء تلك القادمة عليّ في البيت. كان هناك قابعٌ أمام حجرة جدتي، دخلت الشقة فنظر نحوي بعينين صُفراوين باردتين بلا مبالاة. ثم تحرك نحو حجرتها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تصير فيها سويًا بعد تلك الحادثة القديمة التي حاولت التخلص فيها منه. بدا الأمر مفزعًا وبدأ قلبي يخفق في عنفٍ، وقد عادت كل مخاوفي القديمة منه للاستيقاظ ثانية. تذكرت حينها عينيه الحمراوين كعيون الشياطين وتذكرت أفعاله الغامضة، التي لا تمت لعالم الحيوانات العجماء بأدنى صلة، ثم تذكرت مواءه الغامض النادر فشعرت بالهلع.

زحفت نحو حجرتي وأغلقت بابها خلفي. رقدت على الفراش مضطربًا بينما يأتيني مواءه الغامض من خلف الباب المغلق،



فلا أجسر على مغادرة الحجرة لأرى ماذا يفعل؟ وتمضي ساعات الليل بطيئة حتى يأتي النوم.

وفي الحلم أراه، وقد استطالت أطرافه وتضخم رأسه وهو يقف أمامي على قائمتيه الخلفيين منتصبًا كالبشر. يخفق قلبي وأبغي الفرار من أمامه فلا أقدر. ثم تلوح على شفتيه ابتسامة ظافرة. ابتسامة أعلم أنني رأيتها من قبل.. وبصوتٍ عميقٍ راح يتحدث:

- لقد صرت لي أيها البشري. ماتت جدتك ولم يعد هناك من يحميك مني.

ليحيط جسدي بعبدها بأطرافه ويعتصرني بعنف، فتظلم الدنيا في نظري وأهوي في ظلمات لا نهائية. أشعر في تلك اللحظة بالنهاية وأنني في طريقي لمغادرة هذا العالم، لكنني أستيقظ بغتة لأدرك أنني كنت أحلم.

أهب من الفراش لاهثًا في الظلام بقلب واجف. وبعد لحظات أدرك أنني لست بمفردي في الحجرة. ففي الظلام راحت عينان مشتعلتان تتوهجان في الظلام جوار الفراش ترمقانني بثبات.

لقد كان القط رفيقي في الحجرة التي أحكمت إغلاقها قبل نومي.

فكيف دخلها إذًا؟

لا أدري كيف لم يتوقف قلبي حينها فزعًا، في الواقع لو متُّ حينها لما تعجبت..

في تلك الأيام رحت أقرأ كثيرًا عن القطط السوداء. أردت أن أفهم كنه هذا الشيء اللعين الذي يجمعني به البيت. تبدلت



طبيعته الكسول الذي طالما كان عليها، وصار يتبعني في كل مكان. أدخل البيت فأراه خلف الباب بانتظاري. أشاهد التلفاز فيقبع أسفل قدمي ساكنًا. أغلق باب حجرتي من خلفي وأتأكد من وجوده خارجها قبلها وأنام، ليوقظني هاتف خفي من نومي لأجده بالحجرة معي. لن أتحدث عن فزعي وهلعي حينها، لكن ما أعياني هو كيف يدخل الحجرة وهي مغلقة.

لو لم يكن شيطانًا رجيمًا فكيف يفعلها.

كان عليّ الاهتمام به رغم كل شيء واعتدت تقديم الطعام إليه في الأيام الأولى التي تلت موت جدتي. كنت أضع أمامه إناء اللبن فأجده كما هو في اليوم التالي دون أن يمسسه. أقدّم الأسماك النيئة أو المشوية له فيرمقها بلا مبالاة ثم يبتعد. كما لم أره يقرب الماء أبدًا. كنت أشعر بالجنون من كل هذا. كيف يعيش كائن حي دون طعام أو شراب إلا لو كان شبحًا أو شيطانًا.

في التراث الغربي ينظرون إلى القطط السوداء أنها ساحرات متنكرات. وفي القرون الوسطى لم يكن هناك من حظ لأي قط أسود في الحياة. فالكل يطارده وإذا سقط في أيدي مطارديه فالموت شنقًا أو حرقًا أو غرقًا هو مصيره الحتمي.

أما في تراثنا الشرقي فالقطط السوداء هي تجسيد للشياطين والجان. بل وأجاز بعض الغلاة من الفقهاء قتلها والتخلص منها. رغم أن القطط في السنة الشريفة طاهرة لا يلزم قربها تجديد الوضوء. وكان هناك أبو هريرة الصحابي المحب للقطط حتى سُمي بهذا الاسم.



بينما عبدَ الفراعنة القطط. وقد جعلوها أحد الآلهة وأطلقوا عليها «بست أو بستيت». بل وبالغوا في تقديسها فجعلوا لها عاصمة تُعبَد بها.

واقتنت جدتي قطًا لعينًا أجهل سره، كما تركت لي ميراثًا ملعونًا من أغراضها التي حذرتني من التخلص منها.

وقرب الفجر في أحد الأيام أيقظتني قَرعات قوية على الباب. لأنهض متوترًا متسائلًا عن كنه صاحبها. وحين أفتح الباب أجده الجار المزعج موظف مديرية الصحة بالقاهرة عبد الحفيظ عوض والذي يقطن في البناية المجاورة لي. كان بملابسه الداخلية الغارقة في عرقه وبادرني بفظاظة:

- أسكِت قطك اللعين أو اقتله. أخرِجه من شرفتك اللعينة واحبسه داخل البيت كي يكف عن ضجيجه. نريد أن ننام يا هذا. نريد أن نرتاح. ألا تشعر بالعار وقطك يزعجنا هكذا»

وأنتبه في تلك اللحظة للمواء الممطوط القوي. أقترب من الشرفة فيبدو المواء جليًا. يمكنك أن تحسبه بكاءَ طفلٍ بائس يتوجع أو هو عواء طفل تائه يبحث عن المأوى والدفء. أخرج إلى الشرفة فأجده يعتليها. أصرخ فيه أن يصمت فليفتت إليّ برأسه لأرى العينين الناريتين مرة أخرى. ثم أنتبه إلى حشد القطط التي اجتمعت أسفل الشرفة في صفٍّ واحدٍ وقد رفعت رأسها نحو قطي في صمتٍ يحمل الكثير من الخشوع، كأتباع ديانة غامضة يصطفون حول كاهنهم الأعظم.

أشعر بالرعب وأتمتم في ضراعة كأنما أرجوه:



- أرجوك كف عن هذا. لقد أزعجت الجيران ولا أريد أن يتشاجروا معي أو يغضبوا.

لكنه يرفع رأسه ثانيةً نحو الفضاء المظلم ويُطلق مواء آخرَ طويلًا ثم يغادر الشرفة.

وفي الصباح التالي علمت أن جاري عبد الحفيظ عوض قد أصابته أزمة قلبية قُرب الفجر ذهبت بحياته. قالت زوجته أنه كان بالمطبخ حين داهمته الأزمة القلبية. وأنها سمعته قبلها يتحدث إلى شخص ما برعب، وهو يردِّد أنه لم يقصد. كما تجزم أنها سمعت مواء قط حينها. لكنها لم تجد أيَّ أثر للقط حين دخلت للمطبخ أو أي أثر لذلك الشخص المزعوم الذي كان زوجها يحدثه. وبعدها انتبهت لجثمان زوجها وقد رأت الفزع على وجهه.

رأيت في وجه القط اعترافًا غير مكتوب بما جرى. هل قتله القط لأنه احتج. تخيفني الإجابة في الواقع.

ويقول لي خالد صديقي ببساطة ونحن بالمقهى:

- تخلص منه تنتهي متاعبك وشكواك. في النهاية هو مجرد قط وأنت لا ترغب في اقتنائه.

أتمنى لو أفعل ما يطالبني به خالد، لكنني أعود وأتذكر تلك المرة الوحيدة التي حاولت فيها التخلص منه وفشلت، فأدرك أنني لن أقدر. أشعر أن هذا القط لا ينتمي لعالمنا المادي هذا ولن تفلح أبدًا محاولاتي لإقصائه عن البيت.

أرشف الشاي وأسبح شاردًا في تلك القصة الرهيبة لـ «أدجار آلن بو» عن ذلك القط الأسود بلوتو. كان يشبه قطي هذا وكأنها



نفس القط. ولقد شنقه صاحبه حينها بلا رحمة، فعاد من موته ليثأر. خيال مريع لن يحتمله قلبي لو حدث. ماذا لو نجحت في التخلص من ذلك القط اللعين وقتله، ثم وجدته أمامي ثانية. حتما سأموت فزعًا حينها أو أجن. لن أستطيع التخلص منه كما يقترح وليد.

أخبره بهذا فيهتف في وجهي:

- أنت جبان رعديد.. أيها الأحمق، هذا القط اللعين يتغذى على خوفك وهلعك منه.

- إنه ليس قطًا يا وليد. إنه شيء آخر. إنه حتى لا يقرب الطعام أبدًا..

- وما أدراك أنه لا يفعل. ربما يقتات على الفئران والحشرات والزواحف. إن منازلنا كلها قديمة متهاوية وتمتلئ عن آخرها بتلك الزواحف وغيرها.

- وماذا عن عينيه. لن تتخيل كيف تصير مخيفة حين تتحول للون الأحمر.

- كل القطط كذلك. إنها خدع بصرية لا أكثر.

كان مُصِرًّا على أنني واهمٌ أحمق. فأقول له بإذعان واستسلام:

- إذا ماذا تقترح.

- دعني أخلصك منه ما دمت تخشاه هكذا.

وأعود به للبيت. يتقدم من القط الرابض في الصالة بسكون فلا يكترث به. يحمله بين ذراعيه فلا يحتج القط. يبتسم خالد بسخرية ويقول وهو يغادر البيت:



- هل رأيت أيها الجبان. إنه مجرد قط تافه كسول. سوف أذهب به للمقابر، لأدعه هناك

ويغادر البيت وأنا لا أصدق أنني تخلصت من القط بتلك السهولة.

وقُرب الفجر أنتبه لرنين هاتفي المحمول المُلِح: كان خالد الذي راح يصرخ بفزع:

- عليك اللعنة أنت وجدتك الشيطانة. تعال إليّ حالًا وخُذ قطك اللعين. إنه شيطان.

هرعت إلى شقته. كان باب الشقة مواربًا غير مغلق، ومواء قطي يتردد صداه من داخل الشقة فأدخل. أرى عينيه المتوهجتين كالجمر. فأتجمد في مكاني. يرمقني بثبات لبعض الوقت قبل أن يتحرك نحو الخارج ويغادر المكان. أطرق باب حجرة خالد وأخبره أنني قد جئت، فيصرخ في الداخل:

- بل أنت القط اللعين. أنت تنتحل صوت صديقي لأفتح الباب لكنني لن أفتح حتى تنصرف، لن أفتحه مهما حدث.

أشعر بفزعه وأقسم له إنني صديقه. يتردد قليلًا ثم يفتح الباب. يراني فيرمقني بشك بعض الوقت قبل أن يرتمي في حضني باكيًا. يخبرني كيف تحول القط إلى شيطان. كيف استطالت مخالبه وأطرافه. كيف انتصب على قائمتيه الخلفيتين. وكيف هاجمه وراح يخدش وجهه محاولًا اقتناص عنقه. ويزداد نحيبه وفزعه وألحظ البلل في بنطاله فأدرك أنه قد بلّل نفسه. كان يصرخ حينها:

- إنه شيطان.. إنه شيطان لعين، اذهب به من هنا وارحل حالًا.



كل هذا أعلمه جيدًا من قبل يا خالد. هذا ما كنت أخبرك به لكنك من رفض أن يصدق.

وأعود للبيت فأجده بانتظاري داخله. لم يعد مهمًا أن أسأل كيف دخل البيت المغلق، فقد اعتدت منه هذا. تعود عيناه للوهج الأصفر الفسفوري ويختفي من أمامي داخل حجرة جدتي. يفارقني النوم وأنا أفكر أنني لن أظل طيلة حياتي أسير رفقة هذا القط اللعين. أشعر بالحنق على جدتي فألعنها رغمًا عني بصوت مرتفع.

ويتناهى إلى أذني أصوات تتردد في الخارج. أصوات بشرية مختلطة كأنما هناك من يتحدث في ردهة الشقة. أغادر حجرتي متوترًا لأرى ما الذي يحدث. كان القط متربعًا في الصالة وأمامه قط أسود آخر لا يختلف عنه في سواده الحالك وإن ميزت أنه أنثى. يرمقاني بعيون متشابهة تمامًا؛ فيرتجف قلبي، من أين أتى القط الآخر؟ بل وكيف يمكنني أن أحتمل قطين وقد كان قط واحد يصيبني بالجنون.

أشعر باليأس، وأرمقهما بعجز. أتمنى لو أركلهما خارج البيت، أو أهشم جمجمتهما على الحائط. تلوح ابتسامة مخيفة على وجهيهما ويزداد بريق عيونهما وكأنهما يدركان ما يجول في نفسي من قنوط وإحباط، وأعود لحجرتي ثانية، وأغلقها ثانية خلفي بإحكام.

وتعود الأصوات الآدمية خارج الحجرة لحديثها المبهم الغامض ثانية. وفي الظلام ينبعث من أسفل الباب المغلق بعض الضوء الأحمر، ممزوجًا بدخان عجيب. تزداد الأصوات صخبًا خارج الغرفة ويأسرني الفزع فأتقوقع حول نفسي بالفراش وأرتجف.

ويأتي النوم بعد حين. وفي الأحلام أجد جدتي الراحلة



بانتظاري، الظلام يكتنفها وهي تتكئ على عكازها الخشبي الذي ينتهي برأس قط، وعيناها تتوهجان كالنيران. وبالرغم من إدراكي أني أحلم إلا أنني أفشل في الخروج منه.

يتآكل لحم وجهها ويذوب، وتصير رأسها كالجمجمة وتمرح في فجوتي عينيها كرتان من اللهب، وتقول بفم عظمي خالٍ من الأسنان:

- هل افتقدت جدتك العزيزة يا صغيري؟ ها أنا قد عُدت لك، ألن ترحّب بي يا ولد؟

يتردد صدى صوتها في الفراغ من حولنا وأتراجع أمامها. تتلاشى ملابسها ومن أسفلها يبرز هيكلها العظمي، وفي منتصف القفص الصدري ينبض قلبها بلا توقف. أشعر بأنفاسي المختنقة ومن أسفل قدميها العظميتين يظهر القط الأسود اللعين. عيناه ناريتان هو الآخر وعلى وجهه نفس الابتسامة الساخرة. وتُواصل جدتي حديثها بصوت متحشرج كأنما يأتي من أعماق الجحيم:

- لقد حان وقت العودة يا صغيري. هيًّا استعد لاستقبالي.

وراحت تضحك وراح القط يضحك معها ورحت أصرخ. وابتلعها الضباب وهي ما زالت تقول:

- انتظرني في اليوم الأربعين لموتي.. سوف أعود!!

وأهب من النوم فزعًا. يعلو صدري ويهبط في رحلة البحث عن ذرّة هواء واحدة، ويحتشد العرق بجبهتي ومن خلف الباب تصلني الضحكات التي كانت تتردد في الحلم.

هل ما زالت أحلم؟



كلا.. إنه حقيقي.. هناك من يطلق تلك الضحكات المريعة بالخارج، لكنني لن أخرج، أخشى أن أخرج فأرى جدتي التي استحالت هيكلًا عظميًا تضحك وأسفل قدميها يشاركها قطها الأسود اللعين الضحك.

وتختفي الضحكات ويأتي الصباح وأتذكر ما هو اليوم. اليوم هو الأربعون على موت جدتي. أغادر الغرفة وتتلاعب في رأسي عشرات الأفكار. أرى القط الأسود وهو يرمقني بلا مبالاة، وقد اختفت القطة الأخرى فأتجاهله وأتجه للمطبخ.. أعد القهوة كي أزيح بعض الصداع عن عقلي ومع كل رشفة يزول تشوشي وأستعيد جزءًا آخرَ من ذاكرتي. وأعود لتذكر حديث عجيب أخبرتني به يومًا ولم أفهمه.

قالت لي إن السحرة يعودون ثانية بعد الموت. وأن أرواح السحرة ترعاها شياطين الجحيم وتعد من أجلها الكيان المادي الذي يحلّون فيه بعد موتهم.

أذكر تلك المرة التي عاقبتني فيها جدتي بشدة على خطأ ما فنظرت لها بغِلٍّ وأنا أتمنى أن تموت. لا أدري هل خمنت ما أفكر فيه أم أنها تقرأ أفكاري كم أظن أحيانًا لكنها ضحكت ضحكتها الشريرة الساخرة وغمغمت:

- تتمنى موتي لكنك لن تسعد به لو حدث لوقتٍ طويل. أعرف كيف أعود وقد أعددت جسدي القادم. سوف أمكث معك للأبد أيها الشقي ولن أفارقك أبدًا.



يقولون إن أرواح السحرة تسكن القطط، وأن السحرة الأشرار يفضلون القطط السوداء. هل أعدت جدتي ذلك القط ليكون وعاء روحها حين تعود، أخشى أن يكون هذا ما يحدث.

أرفض الفكرة تمامًا وأشعر أنها تتعارض مع معتقداتي، لكن ما أدراني أنا عن الأرواح، ولا ما يحدث لها؟

أغادر المنزل وعقلي في سبيله للجنون. أهيم على وجهي حتى يزول النهار فأعود للبيت. الظلام في كل ركن في البيت وألحظ الوهج الذي ينعكس في حجرة جدتي. أقترب فأرى القط الأسود قابعًا بين دخان شيطاني يغمره. الهمسات الشيطانية تتردد في الفراغ وأصوات أقدام خفيه يتردد صداها حولي وينبض قلبي هلعًا بلا توقف.

وحين يلوح لي شبح جدتي وهو يظهر في فراغ الحجرة أصاب بالجنون. لن أسمح لها أن تعود. لن أحتمل أن أحيا مع روحٍ ميتةٍ وأن أظل أسيرها طوال عمري. وأندفع بلا تعقُّلٍ نحو القط. أحمله فيحاول التملص من بين كفي وهو يخدشهما بأنيابه ومخالبه لكنني لا أتركه. وأهرول نحو النافذة ومن خلفي تتردد صرخات جدتي الفزعة.

ودون أن أشعر بنفسي ألقي بالقط من الشرفة. يسبح جسده في الفراغ للحظات ويتقوس ظهره ويستعد للهبوط الآمن على قوائمه كما تفعل القطط كلها. لكن السيارة المسرعة في الشارع لم تمنحه تلك الفرصة واصطدمت به قبل أن يبلغ الأرض.

ويشق الفراغ من خلفي صرخةٌ هائلةٌ تهتز لها الجدران. صرخة أعلم صاحبتها.. صرخة جدتي الراحلة.



يتكور جسد القط على الطريق وتنبثق من جسده الدماء وتسيل حول جسده مكونة بركة من الدماء. يرتعش القط غير مرة قبل أن تهمد حركته وقد مات.

ألتفت خلفي لأرى شبح جدتي يرمقني في مقت. كان هذا نهاية تماسكي فهويت أرضًا وقد فارقني وعيي، لكنني قبل أن أفعل أسمع صوتها من بعيد وهو يصرخ فيَّ:

- أيها الأحمق، سوف تدفع الثمن.

وأفيق لأدرك أن يومًا كاملًا قد مرّ، الشقة ساكنة كالقبور وأبحث في كل مكان عن القط فلا أجده وأتساءل بأمل هل انتهت متاعبي مع هذا القط، وهل حقًّا كانت جدتي تبحث حقًّا عن سبيل ما للعودة من خلال القط.

لا أعلم!!

وحتى الآن ومن حينٍ لآخر أشعر بالقط الأسود كشبح خفي حولي. يصلني مواؤه المخيف في جوف الليل فأرتعد.. وفي أحلامي ما زالت جدتي تؤكد أنها ستعود لتنتقم مني.

ترى هل تعود يومًا لتنتقم كما تهددني؟!!

لست أدري..

* * *



فريدة

تمنحني رسم طمأنينة أفتقدها وراحة أنشدها. تبث في حياتي صخبًا يُبدد وحشتي واهتمامًا وشغفًا لم أعرفهما قبلًا. تمنحني أملًا في غدٍ آخرَ غير الذي أنتظره، وحلمًا حلوًا يزيح عن بالي كوابيسَ لا تنقطع. تمنحني حُبًّا لم أتعرفه أو أتذوقه قبلها وحنانًا توارى من حياتي يوم ماتت أمي قبل أعوام طوال.

أراها ضحكة تنير الأفق لناظري وأحسها عذبة كحبيبة الشابي التي أنشدها قصيدة فمنحها الخلود.

عذبةٌ أنتِ كالطفولة، كالأحلام كاللحنِ، كالصباحِ الجديدِ

كالسَّماء الضَّحُوكِ كالليلة القمراءِ كالورد.. كابتسام الوليدِ

أُغمض عينيَّ على فراشي وأردد القصيدة العبقرية التي أحفظها الآن بخشوع راهب متبتل أو شيخ خاشع

يا لها من طهارةٍ، تبعثُ التقديس في مهجة الشَّقيِّ العنيدِ!

يا لها رقَّة تكادُ يَرفُ الوَرْدُ منها في الصخْرة الجُلْمُودِ!

وأسرح في لقائنا الأول!!



لم تكن النظرة الأولى هي ما أصابت قلبينا بسهام الحب فقيدتنا بحباله. كنت قد رأيتها قبلها لعام كامل كزميلة دراسة دون أن تشغل بالي للحظة واحدة ودون أن ألتفت إليها ولو مرة.

يتابعها عصام صديقي الذي تعرفته في أيامي الأولى بالكلية، بنظرات تقطر لزوجة ولا أبالي، بل ولا أهتم حتى بزجره أو منعه عن هذا. كان هذا شأنه أن يكون وقحًا، كما أنه شأنها أن تردعه لو أزعجها بسلوكه. كانت عشرات العيون تلاحقها أينما حلت أو ارتحلت، دون أن تشارك عيناي تلك العيون الجشعة.

جميلة هي.. وهل ينكر حلاوة الزهور وبهاء الفراشات غير العميان، لكن هذا في الواقع لا يعني لي أي شيء. الجميلات في كل مكان من حولي والفتيات والانشغال باصطيادهن ليس من ضمن اهتماماتي الحالية أو المستقبلية.

لكن نهاية العام حملت لكلينا الجديد، وأرسلت لقلبينا أعاصيرها العاتية المعبقة بالعشق والهيام فارتجفا، واندهشا ثم خضعا لسلطان العشق الذي لا يرحم. كانت يومها تغادر الكلية بصحبة صديقة لها لم أرها دونها قط. كانت جميلة هي الأخرى أو لنقُل إنها أكثر فتنة، لكن جمالها كان ممزوجًا بميوعة و دلال لا تداريه.

تدعى صديقتها فريدة، وكانت فريدة بحق في حلاوتها وتبرُّجها وملابسها التي تبرز وتكشف من جسدها الكثير ولا تدع أبدًا فرصة للتخيل. وعلى مقربة من باب الكلية كان هناك سائق إحدى سيارات السوزوكي الصغيرة التي تنقل الطلاب من باب الجامعة للمترو، ينتظر أن تمتلئ سيارته ليغادر.



راح يضايقهما حينها بلزوجة وتبجح وإلحاح، فلم يعيراه انتباهًا، وكنت وقتها على مقربة منها أراقب وأرى. وحين تحول التبجح لوقاحة، وتبدلت المعاكسة لتحرش، وامتدت يده نحوهما لتنال بعضًا من حلاوة جسديهما، تكوّر كفي الأيمن هو الآخر واندفع نحو أنفه فأدماه. ثم تلاحقت بعدها لكماتي في وجهه حتى شوهته، حينها هرع زملاؤه من السائقين للذود عنه واحتشد الطلاب من حولي لنصرتي، ولاح في الأفق القتال.

ومن بعيد راقبت عينين عسليتين ما يدور، وصاحبتهما تنتظر بلهفة أن تنتهي المشاجرة لتقترب من بطلها الذي هبّ لنجدتها، كي تمنحه الجائزة الكبرى.

قلبها وعشقها!

وانتهى العراك، فاقتربت منّي وقد تمزق قميصي وتورم جانب خدي الأيمن إثر لكمة طائشة، وشكرتني كثيرًا وهي تقترح أن نرى طبيبًا ما كي نطمئن لإصابتي التي لا أحس بأثرها. لكنني رفضت بتهذيب هربت من أمامها، وأنا أداري بخجلٍ ما يكشفه القميص الممزق.

أخبرتني بعدها أنها رأتني في تلك اللحظة بطلًا إغريقيًّا قاتلَ من أجلها فاستحق حبها، بينما انشغلت حينها بقميصي الممزق والحسرة تنهشني من أجله. لم أكن يومًا ميسور الحال ونافست جدتي العم سكروج في بخله فلم تهبني أبدًا من مالها إلا القليل.

واندفعت نحوي ريم في اليوم التالي فور أن رأتني.



كانت تشكرني ثانية وأنا أقسم لها إن الأمر لا يستحق. هذه المرة كنت ألحظ للمرة الأولى هاتين العينين البندقيتين الصافيتين كماء الجداول، قبل أن أتوه في دروبهما المتشابكة لبرهة، وحين شعرت أنني لن أتمالك نفسي تركتها في عجلٍ وابتعدت.

لكن الحال حينها قد تبدّل. والقلب الذي أتى قبل الساعة لها ليس هو القلب الذي غادرها. وتوهجت جذوة الحب الأولى فاشتعلت روحانا، حتى صرنا بعدها لا نفترق.

أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميل عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجودِ

فيكِ ما في من غموضٍ وعُمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبودِ

أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ فَجْرٌ من السّحرِ تجلّى لقلبيَ المعمودِ

تمنحني ريم في كل حين ما يرضيني ويفتنني بها، لكنها أحيانًا أخرى تصب على رأسي الكوارث، وهذه المرة أرهقتني بفريدة صديقتها الفاتنة ومشكلتها الغريبة الفريدة.

لا أدري ما شأني بها، وما ذنبي في الاهتمام بما تعانيه. لكنه الحب.. وهل هناك من يمكنه أن يعترض على أحكامه.

أنتِ فوقَ الخيال، والشّعرِ، والفنِّ وفوقَ النُّهَى وفوقَ الحُدودِ

مات والد فريدة، رجل الأعمال الثري للغاية الذي لا أفهم فيما كان يعمل ولا كيف اكتسب تلك الأموال الطائلة. الأمر كان صعبًا على الفتاة بلا شك لكنه ليس مأساة. أنا مثلًا أحيا منذ طفولتي المبكرة بلا أبٍ ولا أم ولم تسقط السماوات بعد.

أعتقد أن هذا حال كل البشر لولا المبالغة والادعاء!



ستكون أيام الفراق الأولى عسيرة مرهقة ونحن لا نصدق. لكن توالي الأيام يطفئ نيران اللوعة رويدًا، رويدًا، وبعد زمنٍ سيصير الفراق ذكرى حزينة نأسى قليلًا لذكرها لننساها بعد برهة ونعود لحياتنا ثانية.

لكن فريدة رفضت أن تصدق أن (بابي) الذي يدللها قد مات فجأة. رفض عقلها أن يخضع لتلك الحقيقة الكونية وراحت تصر أنه ما زال حيًا. كانت تزور قبره كل يوم منذ وفاته، بمفردها غالبًا، ثم تلصق أذنيها طويلًا على باب القبر الحديدي وهي تسترق السمع عسى أن يناديها من داخله كما تتمنى وتتوهم.

كانت تتحرك في أنحاء الفيلا الصغيرة الكائنة في ضاحية المعادي ليدور بينها وبين شبحه المزعوم حديثٌ وهميٌّ. تقسم لأمها إنها تحدثُه، ولا يعترض أحد على ما تزعمه إشفاقًا عليها، والكل يعلم كم كان تعلقها به.

إنه الأب الذي منحها كل شيء ولم يرفض لها طلبًا كما لم يقيدها يومًا بقيد ولم يحتج لحظة على ما تقوم به من حماقات مهما كان غير مقبول.

لم تفارقها ريم منذ الوفاة تقريبًا، وظلت تحاول أن تعيدها لرشدها دون جدوى. كانت تخبرني أن جنون فريدة كان يشتعل لو حاولت أن تُفهمها أن أباها قد مات ولن يعود، وتحدثني كل يوم عن تبدل شخصيتها وما تفعله من غرائب.

تسألني المشورة والمساعدة، فأخبرها برأيي بلا مواراة:

- هي لا تحتاج لمساعدتي. إنها بحاجة لطبيب نفسي.

- صديقتي ليست مجنونة. لا تتحدث عنها هكذا أرجوك.



- لكنها ستصير كذلك لو تجاهلتم الأمر أطول من ذلك. صديقتك تنحدر بسرعة نحو مستنقع الخبال، ولن يفاجئني أن أعلم أنها تم إيداعها مستشفى الأمراض العقلية يومًا ما.

- أنت لا تفهم، فالأمر ليس سهلًا. لن تقبل أمها أن يراها طبيبٌ نفسيٌّ، هل تعلم أنها تتجاهل ما تفعله فريدة ولا تهتم بأن تجلس إليها أو أن تهوّن عليها الأمر. أعتقد أن علاقة فريدة بأمها لم تكن العلاقة المثلى، ربما كان هذا يفسر ما تعانيه فريدة الآن من صدمة لفقدان والدها الذي كانت تتغنى بحبها له. هناك فجوة حقيقية بينها وبين أمها ولهذا أشك أن تكترث أمها بعرضها على طبيب ما.

لكنني رغم ما تقوله لا أشعر بالتعاطف مع فريدة ولا أهتم بعلاقتها بأمها. ما زالت في عيني الفتاة المدللة المستهترة التي تبالغ في مشاعرها. هناك مئات الفتيات اللاتي يفقدن آباءهن كل لحظة دون أن يفعلن ما تقوم به.. ولهذا أقول ببرود:

- هذا يعني أن مشكلتها مزدوجةٌ، أمها التي لا تحبها، وأبوها الذي فقدته، صدقيني يا حبيبتي هذا مؤشر قوي لحاجتها لمساعدة نفسية.

وتتباعد مكالماتي مع ريم، حتى أشعر أنني لم أعد أشغل جُل اهتمامها. أسألها عن السر وأنا أعلم الإجابة.. وبالفعل لم تخيب توقعاتي حين قالت لي:

- إنها فريدة. حالتها تزداد سوءًا كل يوم. أخشى أنها لن تبرأ أبدًا من فقدها لأبيها.

أتنهد بلا مبالاة وأجيب:



- أرى أنك تُحمّلين نفسك فوق طاقتها في رعايتها. هذه مسئولية أهلها في الأساس.

لكنها تحتج عليّ وتصرخ:

- لا تشعرني أنك قاسي القلب هكذا. إنها صديقتي الوحيدة وهي في أمسّ الحاجة للمساعدة. إنها مسكينة للغاية ولا أحد هناك ليساندها أو يهتم بها. أخوها الوحيد لا تراه تقريبًا وأمها لا تكترث بها. كيف يُمكنني أن أتركها بعد كل هذا تعاني هكذا بمفردها.

بالطبع لا أملك أن أمنعها من الاهتمام بصديقتها ولا أرغب كذلك في إغضابها؛ لذا أتجاهل الأمر وأنتظر أن يأتي الفرج.. فإما أن تبرأ فريدة وتعود لحياتها وتعود ريم لحياتي، أو تجن كما أتوقع أن يحدث، وتُودَع في مصحة تعتني بها، بدلًا من أن تقوم ريم بالأمر بمفردها.

لكن الأمر يزداد سوءًا رغمًا عني. ولدهشتي تطالبني ريم أن أكون بجوارهما وهما تقومان بعملٍ أحمق. لقد بدأت فريدة فجأة في مطالعة كتب غريبة عن الأشباح والأرواح والموتى وكيفية الاتصال بهم. زعمت أن أباها يدعوها للحديث لها وأنها ترغب في سماع صوته ولو لمرة واحدة أخيرة.

أي أرواحٍ ترغب تلك الحمقاء في الاتصال بهم؟ وهل تجرؤ على استحضارهم، وهي التي تموت فزعًا لو برز صرصار أو فأر أمامها. بالطبع كنت أعلم الكثير عن تلك الفنون السوداء، كانت جدتي في الواقع خبيرة حقيقية في تلك الأمور، بل وجعلتني كثيرًا وسيطها للاتصال بالموتى وعفاريتهم وشياطينهم. ورغمًا عني كنت أشترك في تلك الأمور الشنيعة، دون أن أمتلك حق الاعتراض.



فلم يكن الأمر ليعيقها لو رفضت، ولديها من الحيل ما يجبرني على الخضوع.

كنت أوقن دومًا أنه لا يوجد ما لا تقدر جدتي على القيام به.

العجيب أن ريم لم تمنعها من الغوص في ضلالها. لم تحاول أن تفهها أن تلك الأمور خطيرة وليس من العقل العبث معها. وفاجأني أن ريم تعتقد أن اتصال فريدة بروح أبيها وحديثها معه قد يريح قلبها ويسكن خيلها، بل ووجدتها تحاول أن تقنعني بالمشاركة في الأمر.

كانت حجتها أنني قد عايشت خبرات كهذه من قبل مع جدتي كما أخبرتها غير مرة وأن وجودي بجوارهما أثناء القيام بتلك التجربة الخطيرة هام لحمايتهما. قالت إنهم سوف يستعينون بكتاب قديم للسحر لتحضير روح الرجل الميت، وسوف أكون أحد المشتركين في الأمر.

كان هذا آخر ما أفكر فيه أو أنوي القيام به، لكنه الحب وهل يملك المحبون حق الاعتراض على رغبات عشاقهم ونزواتهم.

كنا خمسة نجلس في الظلام. أيادينا متشابكة، وهناك شمعة حمراء يترافص لهيبها في منتصف نجمة خماسية، مرسومة في وسط الدائرة التي صنعناها بأجسادنا. الكثير من التعاويذ والهمهمات تلقيها فريدة، من كتاب قديم ذي صفحات صفراء مهترئة. طال الوقت وظللنا نحاول إنجاح التجربة الفاشلة دون أن يحدث شيء، بينما رحت أتجاهل نظرات ريم التي كانت بجواري وهي تسألني بصمت هل سيفلح الأمر.



لن يفلح الأمر يا عزيزتي وهذا ما أتمناه من كل قلبي. لقد سئمت تلك الألعاب اللعينة التي ماتت بوفاة جدتي، ولن أصحح الأمر لكم، ولن أردد إحدى التعاويذ الحقيقية التي أحفظها، والتي أعلم أنها قد تفلح في تجلب روح أبيها الراحل، من عالمها الغامض ليلبي نداءنا.

تمضي ساعتان من الفشل ويحتشد العرق في جباه الجميع قبل أن تنشج فريدة وهي تصرخ بيأس منادية أباها وقد أدركت الفشل.

ويمضي يومان وقد ظننت أن تلك المحاولة الفاشلة ستدفعها للتعقل والكف عن معاودة فكرتها الحمقاء. لكنها كانت مصرة على المضي قدمًا في الأمر وقد تملكتها الفكرة حد الجنون.

وحين خرجت بصحبة ريم للمرة الأولى منذ شهر أرى في عينيها ما ترغب في إخفائه عني. أجلس قبالة وجهها ولا أسمح للعينين البندقيتين بالهرب من محاصرتي. وتخبرني بالحقيقية أو الكارثة التي تزمعان اقترافها سويًا.

هناك الشيخ كريم، أخبرتني أنه عالم روحاني يفهم في تلك الأمور الخارقة وأنه يتقن فنون الاتصال بأرواح الموتى واستدعائهم. لم أكن قد سمعت عنه قبل ذلك. حاولت أن أفهمها أن معظم هؤلاء دجالون في الغالب، لكنها تصر أنه مختلف وأنها قد سألت عنه بنفسها. ألعن عنادها في سري، ثم أقرر أن أكون معهما، لن أسمح لريم أن تتواجد في مكان فيه دجال دون أكون بصحبتها.

كان الرجل يقطن في شقة حديثة تشعرك أنها عيادة لطبيب وليس وكرًا لساحر أو دجال. هو نفسه يرتدي بذلة كاملة عصرية



في غاية الأناقة ومن خلف مكتبه احتشدت على الحائط عشرات الشهادات الأجنبية التي تجزم أنه قد نال درجة الماجستير أو الدكتوراه في فنون الدجل.

وندلف سويًا حجرة جانبية. يطفئ الشيخ كريم الأنوار كلها لنقبع في ظلام دامس قبل أن يشق صوته الظلام والصمت بتعويذة ما. تجاوبه بعض الأصوات الخفية وتقبض ريم على ذراعي بأنامل ترتجف فأربت عليها مطمئنًا.

وبعض لحظات يتعالى صوت حلقي مفزع في الفراغ. يسأله الشيخ كريم عن اسمه فيردد أنه مسعود الفولي أبو فريدة. يرتفع صوت لهاث فريدة من الإثارة قبل أن تسأله سؤالًا عجيبًا.

- لو كنت أبي فأخبرني، أين وضعت العقد الماسي آخر مرة؟

يدهشني السؤال الغريب المباغت، ويطول الصمت قبل أن يجيب الصوت الحلقي بصوت خشن. أنه بعد أن مات لم يعد يذكر تلك الأمور التافهة عن الدنيا. هنا تقول فريدة بثبات غريب وأنا أكاد أن أرى عينيها تلمعان بغضب في الظلام.

- هذا يكفي. لا أرغب في المزيد من الكذب والادعاء، دعونا نذهب!

تقولها وتنهض دون أن تعبأ بالظلام أو تعبأ بالروح التي من المفترض أن الشيخ كريم قد جلبها. نتبعها وقد اشتعل ضوء الحجرة فجأة وفي السيارة تبكي فريدة وهي تخبرنا أن الرجل نصاب. أخبرتنا أن أباها اعتاد أن يخبئ عقدًا ثمينًا من الماس جلبه من أجلها في خزانة خاصة بحجرة مكتبه. لم يعلم أحد غيرها بأمر تلك



الخزانة الصغيرة التي تحوي بعض الأوراق الأخرى المهمة الخاصة بأبيها. كانت الخزانة سرها وسر أبيها الذي جمعهما معًا. حتى أمها لم تكن تعلم عن تلك الخزانة شيئًا. كانت علاقتها بأبيها غريبه كما يبدو، حتى إنه كان يثق بها دون أمها.

وأصرخ في ريم أن هذا يكفي. وأحاول ببعض الخشونة أن أبين لها أن عليها أن تكف عن تلك الحماقات التي تقوم بها مع صديقتها.

وبعد حين يأتيني صوت ريم صارخًا، أن صديقتها فريدة تموت. وأدرك في صوتها توتر حقيقي:

- «لن تصدق ما صارت إليه الآن، لقد امتنعت تمامًا عن الطعام والشراب منذ أسبوع كامل. هزل بدنها و انهار إدراكها حتى إنها لا تكف عن الحديث مع أشباحٍ خفيةٍ لأبيها»

ويعلو نحيبها ونشيجها قبل أن تصيح بي:

- يجب أن تساعدني وأن تفعل من أجلها شيئًا ما، وإلا لن أسامحك.

ولا أدري ما يمكنني أن أفعله من أجل صديقتها. لكنها تُواصل حديثها وتضرب ضربتها الأخيرة.

- قناع جدتك الغريب. أخبرتني أنها كانت تستعمله للاتصال بالموتى. لماذا لا نجرِّبه للاتصال بروح والد فريدة. أرجوك أن تقبل يا شريف، قد نفلح هذه المرة، وربما كان في هذا شفاؤها.

ولأول مرة أشعر بالندم أني أخبرتها بهذا الأمر، وأقول مستنكرًا:

- أنت تمزحين بلا شك. لن أستخدم هذا القناع أبدًا.

بالطبع كنت مصرًا ألا أعبث بالقناع المخيف، ثابتًا في قراري كالطَّود، لكنها ريم، وإذا أصرت على أمر - ودائمًا تُصر - فلن يهدأ



لها بال حتى تناله، وأمام إلحاحها، ثم غضبها بعد ذلك لم يكن ممكنًا أن أرفض.

أدخل الحجرة الكئيبة الكريهة وأغالب في نفسي النفور وأنا وأفتش عن القناع. لم يكن تحت الفراش كما اعتقدت، وكان الدولاب بريئًا من حيازته، لكنني وجدته معلقًا على الجدار كأنما كان بانتظاري وأنا الذي لم أره على الجدار يومًا.

كانت الحجرة كريهة ولديها من ألاعيب الشعوذة الكثير. التقطت القناع الملوّن بيد ترتجف وبرزت لذاكرتي تلك المرة التي ارتدته جدتي من أجل تلك القروية المسنة التي انهالت على كفي وقدمي جدتي تقبيلًا وتذللًا، من أجل أن تفعل من أجلها أمرًا ما، لم أدركه حينها.

لا أعتقد أن تلك القروية بملابسها المهلهلة المتهرئة كانت بقادرة على إعطاء جدتي نقودًا أو أجرًا. لكن جدتي ساعدتها. ارتدت القناع بعد أن أظلمت الحجرة تمامًا وأمرتني بالصمت والهدوء. حينها تبدلت فجوتا العينين في القناع لتصيرا ناريتين وشهقت المرأة الريفية فزعًا وانتفض قلبي إثارة ثم تكلمت جدتي بصوت لا ينتمي لها.

لا أذكر بالطبع الآن الكلمات التي خرجت من فم جدتي، ولا أعلم لماذا اشتعلت النيران فجأة في الحجرة. لكنني أحسست بالرعب فدفنت وجهي في حجري كي لا أرى الصخب الذي دار بغتة، ولا زالت الصرخات الرهيبة التي تصاعدت في ذلك الوقت لا تفارق أذني.



وهـزني جـدتي بعـد أن هـدأ كل شيء لأرفـع رأسي عـن عينـين تترقرقـان بالدمـوع. ثـم طالبتنـي جـدتي أن أعـود لحجـرتي ومـا زال القنـاع الغريـب بيدهـا. فتشـت ببصري حينهـا عـن المـرأة الريفيـة بالحجـرة فلـم أرَ غير كومـة مـن ملابـس سـوداء محترقـة تقبـع في المكان الـذي كانـت تجلـس فيـه المـرأة. ثـم انفرجـت شـفتاي عـن كلـمات حائـرة مرتجفـة

- أين ذهبت المرأة؟

دفعتنـي جـدتي خـارج حجرتهـا وعالمهـا الغامـض وهـي تغمغـم بصوتهـا الـذي اسـتعادته ثانيـة:

- ذهب بها فضولها.

وحتـى الآن لا أفهـم مـا معنـى تلـك الإجابـة الغامضـة، لكنـي تعلمت أن القنـاع خطـيرٌ وأنـه مـن الحماقـة العبـث بـه. وطـوال أعـوام بعـد ذلـك أيقنـت صـدق حـدسي حـين تكـرر اختفـاء الكثيريـن بعـد اسـتخدامه.

بالطبـع كان علـيَّ أن أرفـض اسـتخدامه، لكـن غضـب ريـم كان أعظـم مـن رفـضي فأذعنـت للأمـر.

وفي فيـلا فريـدة التقينـا ثانيـةً في تجربـة أعلـم أنهـا لـن تخيـب هـذه المـرة كـما جـرى في المـرة الأولى.

وفي الظـلام قبـع نفـس الأشـخاص الخمسـة الذيـن حضروا التجربة الأولى، والإصرار يدفعهـم لخـوض تجربـة أخـرى. صنعـوا بأجسـادهم مُربّعًـا جلـس كل منهـم في أحـد زوايـاه وجلسـت أنـا في منتصفـه.

همهمت فريدة بصوتٍ واهنٍ وهي تدير عينين زائغتين بيننا:

- والآن ماذا سيحدث.



لا أرغب في إجابة السؤال الغبي لكني أفعل:

- سوف نسعى للتواصل مع روح أبيك. نحن هنا اليوم كما أذكر من أجل هذا!

أخبرهم أن يغمضوا عيونهم. أن تصفو عقولهم وألا يفكروا إلا في والد فريدة، وأن يرددوا اسمه سِرًا بلا انقطاع.. يفعلون ما آمرهم به وأشعر بثقل القناع بين أناملي.

ويتبدَّل ملمسه. لم يعد ناعمًا مصقولًا كما كان، فيصير جلديَّ الملمس، كأنما أقبض بين أناملي على قناع مغطىً بجلد بشري. كان أمرًا اعتدته من قبل مرارًا فلم أعد أرتجف لذلك التحول الذي لا يشعر به أحد غيري في قلب هذا الظلام.

وأرفع القناع نحو وجهي وأعتصر ذاكرتي لأتذكر التعويذة التي عليَّ أن أقوم بها. يصل لسمعي شهقة متوترة فأدرك أن عينيِّ القناع قد تحولتا للون اللهب. ويحط ثقلٌ ما على صدري فألهث. ومن حنجرتي يخرج صوت غريب.

«فريدة! هل هذا أنت يا ابنتي؟»

وتصرخ فريدة في الظلام وقد عاد لصوتها قوته:

«أبي. نعم إنه أنت هذه المرة. أليس كذلك؟ أخبرني أرجوك أنك هو!»

- أنا روحه التي لا تفهم أيَّ حماقة تلك التي تقومين بها الآن. ماذا تبغين يا فريدة؟»

وتتردد فريدة قبل أن تجيب الجواب الصاعق:



- «أريدك أن تعود إلي أو أذهب أنا إليك. لا أحتمل الحياة من غيرك يا أبي!»

- «لكل شيء ثمن. فهل تحتملين ثمن عودتي يا صغيرتي؟»

- «إنني مستعدة لدفع حياتي نفسها كي تعود ثانية!»

وأغالب لساني كي لا تقول الروح الشريرة الجملة التالية التي أعلم أنها آتية لا محالة. لكن الكلمات تنزلق من فمي رغمًا عني، حاملة شهوة لا تُخفى، وتزداد العينان اشتعالًا والقناع يكاد أن يحرق وجهي وحرارته ترتفع.

- أأنتِ واثقة مما تقولينه؟

- تمام الثقة وبلا ذرة تردد واحدة يا أبي.

ثم أشعر بقدومهم في المكان. عَلِمت هذا من الصخب والنيران التي راحت تتوهج في كل مكان في ظلام الحجرة، عرفت أنهم في المكان من الشهقة العالية التي خرجت من فم فريدة، والصرخة المرتفعة التي ألقتها ريم ثم فقدت وعيها بعدها، ثم خرج من القناع شياطينه.

لم أخبر أحدًا من قبل أن للقناع شياطين يسكنون داخله، ويتغذون على طلاب مساعدته. القناع ملعون وقد علمت سره منذ أعوام، لكن العهد الذي قطعته حينها على نفسي يمنعني من إفشاء سره.

ويشتعل بغتة جسد نبيل صديق فريدة الذي لا أحبه.

وتحيط عشرات الشياطين بجسد سما، صديقة فريدة القبيحة التي لا تحدثني أبدًا تكبرًا وتعاليًا، فيختفي جسدها.



وجحظت عينا فريدة كأنما تفارق روحها الجسد. في الواقع هذا ما كان يحدث في تلك اللحظة بالفعل. بينما ألتف بجسدي حول جسد ريم الرقيق التائه في غيبوبته، والتي أتمنى أن تطول كي لا تشهد ما يدور الآن من أهوال.

لن يؤذوها طالما أحيطها بجسدي والقناع ما زال على وجهي لكن هذا ليس مصير الآخرين. ومن فم فريدة تتردد الكلمات التي أدرك مغزاها.

- «ابنة بارة بالفعل، هكذا يجب أن يكون الأبناء، سوف أهتم من أجلها بجسدها هذا ما حييت.»

ثم التفتُّ إليه وما زال القناع على وجهي وقلت برجاء يحمل بعض التحذير:

- «لن تخبر ريم بالحقيقة. دعها تعتقد أن التجربة قد فشلت وإلا لاحقتك وأعدتك لجحيمك ثانية، لا أريدها أن تعلم أنك قد حللت في جسد ابنتك.»

وتفيق ريم. تنظر نحوي بخوف فأنزع عن وجهي القناع. تسأل عن سما ونبيل فأخبرها أنهما قد فروا هاربين. تنظر إلى فريدة فتطالبها أن تغادر منزلها لأنها تبغي المكوث فيه بمفردها.

ثم سألتني ريم بعدها لماذا يا ترى تبدلت فريدة بعد تلك التجربة. لماذا تجاهلتها ثم قطعت علاقتها بها تمامًا بعد ذلك. أخبرها أن هذا شأن فاقدي العقل المخبولين. ثم أحتضن كفها بين أناملي وأطالبها أن تنساها وأن تهتم فقط بحُبِّنا ومشاعرنا، وأعود لأهمس في أذنيها ثانية:



آهِ يا زهرتي الجميلة لو تدرين ما جِدٌّ في فؤادي الوحيدِ
في فؤادي الغريبِ تُخلَقُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
وشموسٌ وضَّاءة ونجومٌ تنثرُ النُّورَ في فضاءٍ مديدِ
وربيعٌ كأنَّه حُلُمُ الشاعرِ في سَكرة الشباب السعيدِ
ورياضٌ لا تعرف الحلَكَ الدَّاجي ولا ثورة الخريفِ العتيدِ
وطُيورٌ سِحريَّة تتناغى بأناشيدَ حلوة التغريدِ
وقصورٌ كأنَّها الشَّفَقُ المخضُوبُ أو طلعة الصباحِ الوليدِ
وغيومٌ رقيقة تتهادى كأباديدَ من نُثارِ الورودِ
وحياة شعريَّة هي عندي صورة من حياة أهلِ الخلودِ
- «آه كم أهواكِ يا ريم!»

***



حجابان

وأطلقت ريم ضحكتها الصافية، فأذابت اعتراضي وذهبت برفضي، وواصلت حديثها:

- أخبره بالله عليك أن يبتعد عنها وأن يكف عن تلك المحاولات الطفولية التي يقوم بها لجذب انتباهها. إنه لا يفقه شيئًا في أمور الفتيات ولا كيفية جذب انتباههن. لو ظل هكذا مائة عام فلن يصل لشيء.

أجيب في احتجاج:

- لكنه يحبها!

- ومتى كان هذا كافيًا، طالما لا تشعر به على الإطلاق؟! ليحافظ على ما بقي من كرامته، وليتوقف.

كانت تُحدِّثني عن عمرو صديقي وصديقتها أسماء. أخبرتني بمحاولاته التي لا يكف عن القيام بها ليلفت انتباه أسماء وتعلم بحبه. كان يحبها منذ أعوام، ويخفي حبها في ثنايا قلبه لكن عيون المحب تفضحه.

كانت أسماء جارته وجارتي في الوقت نفسه. وبدأ الأمر حين كانت في المرحلة الثانوية. كان يراقبها وهي تتحرك أمامه في رشاقة وخفة وهي تحتضن كراساتها وكتبها إلى صدرها، في طريقها إلى درس ما، أو عائدة منه إلى منزلها، فيدق قلبه في جنون وتدمع عيناه في لوعة واشتياق، ثم يتنهد.

راح يتبعها بعينيه وينتظر أن تخرج إلى الشرفة وهي ترتدي بيجامتها الضيقة، وقد عقصت شعرها خلف رأسها، فيرتفع عنقه نحوها وتتعلق عيناه بها، و هو يتساءل في لوعة، متى تحبه وهل يأتي اليوم الذي يتزوجها فيه؟

تغيب عن بصره لأيام فيلوذ بشرفة منزله المقابلة لشرفة بيتها في انتظار أن يراها ولو للحظة أو يلمح طيفها من خلف الستائر والزجاج. ولو طال الغياب يسوء حاله، ويضيق خُلقه، ويضطرب عقله، ويلوذ بعزلته، حتى تشرق شمسها ثانية ويراها ليذهب الجدب عن روحه، ويعاوده ربيعه المعبق بالأمل.

راح يكتم شوقه في أعماق قلبه، بينما يمنعه الحياء والخجل والتردد من البوح لها بما يعتمل في نفسه. كلما رأينا العشق في عينيه، نصحناه أن يخبرها بحبه، وأن يفارق خجله هذا كي ينعم بالوصال.

اقترحت عليه أن يلجأ لأخته وقد كانت صديقتها، لتخبرها بأمره، فأصابه بالذعر، واحتقن وجهه، وكأنني قلت شيئًا مُنكرًا -والعياذ بالله- قبل أن يقسم عليّ ألا أعود لهذا الحديث ثانية.

يلجمه خجله، ويسقمه العشق ولا يرحمه، ويكتم هواه، حتى نرى العشق قاتله يومًا ما حتى أتذكر قول الشاعر:



إنا تكتـــــــّمنا الهوى.. والداء أقـــــتله دفينة.

العجيب أنها حين أنهت دراستها الثانوية التحقت بنفس كُليتنا، وصارت زميلة لي وله، وإن كنا نسبقها بعامين. ظننت أن الحال قد يتبدل، وأن الدراسة في مكانٍ واحدٍ قد تجمع بينهما، لكنني كنت مخطئًا.

ظلَّ على حاله وخجله يرقبها من بعيد ولا يقترب. يحضر محاضراتها وهو يجلس في ركن بعيد من المدرج، ليكتفي بالنظر إليها ومراقبة حالها. تسير في ردهات الكلية فيلاحقها بعينيه. فإن غابت من أمامه راح يبحث عنها كالمجنون.

إن حدَّثها زميلٌ ما، نهشته الغيرة، وإن ضحكت لدعابة زميلٍ آخر ظن أنها ربما معجبة به، فتثور نفسه ولا يهدأ حتى ينصرف عنها هذا الزميل، أو تتركه هي.

تجمعهما الصدف غير المرتبة حينا فيتقابلان وجهًا لوجه. تبتسم له ابتسامتها الخفيفة وتحييه بإيماءةٍ من رأسها، وتحرك شفتيها بتحية هامسة له. حينها يتبدل حاله وتغادر السكينة نفسه فيرتبك ويضطرب، وتسقط أغراضه التي يحملها وقد انتفض جسده بغتة، وهو لا يدري ماذا يفعل، حتى يحتقن وجهه وتتقطع أنفاسه، فتخال أن روحه ستفارق جسده، فتنصرف أسماء من أمامه مسرعة في توتر.

في هذا الوقت كنت قد تعرفت إلى ريم، وأحببتها. وللمصادفة كانت أسماء إحدى صديقاتها. علمت منها أن أسماء تعلم أن عمرو يحبها. لكنها لا تبادله نفس المشاعر. كانت تشفق عليه حينًا، لكن ملاحقته لها في كل مكان توترها وتشعرها بالحصار والخجل كما أنها تلفت الأنظار إليها حتى ضاقت بما يفعله.



ربما لو أخبرها بحبه منذ البداية لتغير الحال. لكن الأمر أصابها الآن بالضجر فلم تعد تطيق هذا الاهتمام، وصارت ملاحقته لها تزعجها، وإن أحجمت على التصريح له بهذا خشية أن تجرحه. كان الجميع في الجامعة يعلم بالقصة، وراح البعض يستمتع بمراقبتهما، ليرى كيف تؤول الأمور بينهما، وكان هذا ما زاد من حنقها وغضبها، وقد سئمت مراقبة الجميع وتتبع العيون لها.

واليوم تحدثني ريم أن أخبره بانزعاج أسماء منه، وأنها سئمت من أفعاله. كانت تطالبني أن أخبر عمرو برغبة أسماء في أن يكف عن ملاحقتها وأن ينساها ويبتعد عنها. إن أسماء تريده أن يعلم أنها لا تحبه، ولا تشعر أن هذا قد يحدث يومًا. ولهذا فلن يجدي نفعًا ما يقوم به.

وأشعر بالحيرة وأنا لا أدري كيف أخبره بأمر كهذا، إنني صديقه المقرب وأكثر من يعلم بشأنه وحاله، وخير من يعلم طبيعته وهشاشة نفسه. كنت أكثر من يعلم أنه لن يحتمل تلك الصدمة وقد باح لي بالكثير من الآمال التي يعقدها في حبه هذا.

وفي مقهى عزوز نجلس أنا وهو وخالد صديقنا الثالث ككل ليلة. نتبادل أنا وخالد شرب الشيشة والقهوة أو لعب النرد ويحمل عمرو بين راحتيه كوب الشاي ليرشفه ببطءٍ وعينه معلقة بشرفة بيت أسماء؛ عسى أن تظهر فيظفر منها بنظرة ما أو حتى يسمع صوتها.

وكان خالد في هذه اللحظة متعكر المزاج. ألتقط منه مبسم الشيشة، وابتسم ساخرًا وأنا أعلم ما يزعجه دون أن أشفق عليه. يرن هاتفه المحمول فيخرجه من جيبه، ويطالع شاشته المضيئة للحظة، قبل أن يزفر بحنقٍ وهو يغلق الهاتف دون أن يرد، ويهتف محتجًا:

- اللعنة. ألا تشعر تلك اللعينة بالسأم؟

أقول بخبث:

- هل هي سارة؟

ويجيب بحنق:

- وهل هناك غيرها. لم يعد أمامها ما تفعله غير أن تزعجني.

أرغب في استثارته، فأميل نحوه وأنا أزفر بعض سحب الدخان من أنفي وفمي وأقول ببراءة مزيّفة:

- ألم تكن تحبها. أتذكر أنك أخبرتني بهذا كثيرًا؟!

وتتراقص شياطين الغضب في وجهه وقد أدرك مقصدي ويصيح فيّ مستنكرًا:

- أحب من أيها الأحمق؟! أنا لا أحب أحدًا. أنت أكثر من يدرك هذا.

تروقني اللعبة فأواصل الحديث ببراءة مصطنعة:

- هل تعني أنك لا تحب سارة حقًّا؟ هذا غريب. إنني ما زلت أذكر كم سعيت طويلًا للفت انتباهها.

يزداد حنقه فيركل قدمي بطرف حذائه، ويلتقط مني مبسم الشيشة بعنف، وأجاهد كيلا تتعالى ضحكاتي أمام عينيه المتسعتين الغاضبتين، وقد عاد الهاتف ليدق ثانية.

راح يسحب أنفاسًا طويلة من الدخان، ويكتمها في صدره للحظات ثم يطلقها بحنق قبل أن يصيح ثانية في ضجر:

- تبًا. لو كنت أدرك أنها ستكون بهذا الإلحاح كذباب الصيف اللعين ما فكرت فيها يومًا ولشنقتُ نفسي قبل أن أتودّد إليها.



وتخرج أسماء لشرفتها في تلك اللحظة فألحظ الارتباك على تلجات عمرو وكوب الشاي يرتجف بين يديه فانصرف ببصري عنه كي لا يزداد توترًا، وأنا أقول لخالد:

- ولماذا لا تخبرها بالحقيقة.. لما لا ترحمها من انتظارك وتخبرها أنك لا تحبها.

- ومَن أخبرك أنني لم أفعل. لقد حدثتها مباشرة في الأمر. سارحتها أنني لا أشعر بالميل نحوها كما أن ظروفي المادية لا تسمح لي بالإقدام على ارتباط ما. أخبرتها أن العلاقة مصيرها الفشل لو تمسكنا بها، وأنه من الأفضل أن ننفصل.

- وماذا كان جوابها؟

سعل للحظة قبل أن يجيب بملل:

- كالمعتاد. راحت تبكي وهي تقسم إنها تحبني، وأنها ستظل بجواري دائمًا، وسوف تنتظرني حتى تتحسن أموري المادية ولو بعد مائة عام. المهم ألا نفترق.

أثلجت صدري الكلمات فقلت في عبث:

- هذا يعني أنها لن تتركك وشأنك.

- هذا ما يبدو، لكني لن أقف ساكنًا، أعرف كيف أجعلها تكرهني بل وتكره نفسها أيضًا، سوف أفعل هذا ولن أرحمها.

ما زالت اللعبة تروقني، فأواصل استفزازه قائلًا:

- أخشى أن تنجح هي في مسعاها، وأراك يومًا إلى جوارها في حفل زفافك.



- لن ترى هذا إلا في أحلامك.. أنت واهم!

وأضحك وأواصل تدخين الشيشة، وأفكر في شأن خالد هنو الآخر.

كان ذئبًا بشريًا تخطى بالكاد العشرين من عمره، لكن ما فعله في عمره القصير لم يفعله من يملكون أضعاف عمره. كان صديقي منذ المرحلة الابتدائية ومنذ نعومة أظفاره بدا واضحًا شغفه بالنساء وأمورهن وتتبعهن.

كان يمتلك مقدرة مذهلة على الفوز باهتمام الفتيات والظفر بقلوبهن الصغيرة. لم يكون وسيمًا كنجوم السينما لو دار هذا بعقل أحدكم، لكنه كان ماهرًا في أن يبدو جذابًا. كما اهتم ببناء جسده فمارس الرياضة في سن مبكر وتناول المنشطات و«الأمينو أسيدز»، حتى امتلك جسدًا مفتولًا ضخمًا، وهو لم يتعد السادسة عشر من عمره فتن به الفتيات وألهب به أحلامهن الغامضة.

أضف إلى هذا امتلاكه لوقاحة بلا حدود، وبرود متناهٍ. لا يعرف التردد لو خطر بباله التودد إلى فتاة ما، ولا يسوءه أبدًا صدُّ فتاة له، أو سبُّها إياه، أو حتى الوقوع في شجارٍ من أجلها. تعرَّف بعشرات الفتيات، ونال من أغلبهن ما أمكنه الظفر به من ملامسة وعبث وغيره.. لم يكفه هذا فراحَ يبحث عن من هن أكبر منه عمرًا ومن يمكنهن أن يمنحه ما هو أكثر مما تمنحه المراهقات.

تعرف بالكثير من المتزوجات والمطلقات والأرامل. نال من كنوزهن الكثير، وأوشك غير مرة أن يضبطه أحدهم. علمت أنه في المرحلة الثانوية حظي باهتمام مدرسة التربية الموسيقية. لا أعلم



كيف أقنعها بحبه كما زعم ولا كيف وصل إلى تخدعها ليصير بديلًا لفترة غير قصيرة عن زوجها الذي يعمل بالخليج.

وفي الجامعة أصبح الأمر أيسر وأسهل. راح يتصيد الفتيات من حوله ويتسلى بإيقاعهن في حبائله وشباكه. لكنه كان ملولًا وما إن يظفر بفتاة وينال بعض عبيرها حتى يلفظها ويبحث عن أخرى. كان كالنحلة التي لا تستقر في مكان.

وكانت سارة هي الأخيرة. طالبة في الصف الثالث بقسم اللغة الألمانية في كلية الألسن. حسنها مبهر ودلالها لا يقاوم وحلاوتها تسكر العقول. تتبعها كعادته فلم تبالِ به. أرسل إليها من صديقاته من يخبرنها بحبه وعشقه الكاذب فزجرتهم ولم تصدق. راح يتبعها في كل مكان، ولا يبالي بانصرافها عنه حتى وهنت مقاومتها يومًا، وقبِلَت أن تحدثه.

كانت هذه الفرصة التي تحينها كثيرًا، وكان مستعدًا لاقتناصها كذئب مُحَنَّك.

يمكنني أن أتخيل ما قام به معها من حيل كي ينال حبها. كانت هي الأصعب فيمن عرفهن ولم ينالها بغير عناء كبير، لكنها رغم ذلك كانت بلا خبرة في مسائل الغرام والحب وهذا فما إن انهارت مقاومتها حتى سلب لُبَّها وظفر بقلبها. نال منها بعض العبير الذي تاق له يومًا كما اعتاد أن يفعل مع غيرها، وكما يحدث في كل مرة، راح الملل يتسرب إلى نفسه فأراد هجرها.

إنه في النهاية ذئب ملول، كما كانت هناك رشا، طالبة الفرقة الأولى في كلية العلوم التي رآها فأعجبته. راقه جسدها وترجرج



جسدها البض في مشيتها، فاشتهاها لنفسه. وقرر أن يغزل حولها خيوط العنكبوت اللزجة التي يجيد حياكتها. المفاجأة هنا أن رشا كانت إحدى قريبات سارة. ويبدو أنها قد أخبرت سارة بملاحقة خالد لها فتحفزت له الأخيرة. بدا واضحًا أن الفتاة الجديدة لن يناها طالما سارة موجودة. لكنه كان لحوحًا كطفل مُدللٍ، وظن أنه قد يصل إليها لو نجح في إبعاد سارة عنه.

لكن التخلص من سارة صار عسيرًا وقد أضحت هي من يلاحقه ويطارده. كانت تعشقه بصدق وأعلنت أنها لن تدعه لغيرها. في الواقع نجحت سارة في تكدير صفوه، وتعكير مزاجه، لكنني لم أشعر بالشفقة لحظة عليه. عليه أن يدفع الثمن في النهاية وقد سبّب الألم للكثيرات، فما الضير في أن يكتوي بقبس من هذا الألم.

وللمرة المائة عاد هاتفه يرن دون أن يجيب، وحين بلغ منه الصبر نهايته أغلقه تمامًا، وهو يلعن اليوم الذي تعرف فيه بتلك الفتاة.

سوف يتخلص منها، سوف يذلها، سوف يجعلها تدفع الثمن. أقسم أمامي أن يفعل كل هذا بسارة، قبل أن تنصرف سويًا عن المكان، لكنني شعرت أنه لن ينجح.

في البيت أعود للوحدة.. أعود للذكريات التي أجترها ولا أسلوها أبدًا.. وهل يمكنني أن أفعل حتى لو شئت.. أعوام عشر قضيتها مع جدتي كانت كافية لأتغير للأبد. الطفل البريء اليتيم الذي يتغير عالمه بغتة بوفاة والدية ليجد نفسه في رعاية جدة قاسية تقوم بأمور مفزعة ليس بالأمر بالهين أبدًا.

أعاود التفكير في شأن صديقي. ورغمًا عني أطرد مشكلة خالد



من عقلي ولا أفكر إلا في عمرو. الفتى العاشق المسكين الذي لن ينعم يومًا بوصالٍ يُسعِدُه.

يتلاقى عقربا الساعة ويتوقفان سويًا عند الثانية عشر وتصدر الساعة دقاتها الرتيبة معلنة منتصف الليل ويرن الهاتف في نفس اللحظة معلنًا عن موعد السمر الليلي مع ريم. يأتي صوتها هادئًا مرهقًا محملًا بالوسن وتسألني:

- ألم تتحدث إلى عمرو بعد؟

- لا أعلم كيف أخبره بالأمر دون أن أسبب صدمة له.

- الجرح لا مفر منه، لكنه سبيلُ الشفاء الوحيد. صديقك يزداد تعلُّقًا بأسماء في كل لحظة، ومن الحمق أن ننتظر حتى يأتي اليوم الذي ترتبط فيه أسماء بآخر ويرى هذا بعينه. قد يقتله هذا بالفعل قهرًا وكمدًا.

أقول بحيرة.

- لا أدرى حقًا ما عليَّ أن أفعله.

وتظل على صمتها وكأنما تشاركني حيرتي، لكن صوتها يعلو بغتة وكأنما توصلت للحل:

- وماذا عن جدتك، ألم تكن ماهرة في تلك الأمور؟

ويقفز قلبي بغتة في صدري، وقد أدركت ما تريده. لا بُدَّ أنها ترغب في أن أستعين بسحر جدتي لأقربهما سويًا. لكنني أفضل أن يموت صديقي من الحب كمدًا ولا أفعل هذا.. لن أقدِمَ على العبث بحجرتها وأغراضها الملعونة مرة أخرى. ففي كل مرة أستعين فيها بحيلة من حيلها ينتهي الأمر بكارثة. لقد تركت لي جدتي ميراثًا



من الديناميت لا فائدة منه غير الانفجار والتدمير.. العجيب أن ريم تؤمن أن جدتي ملكت كل الحلول.. المخيف أن ريم تراها بابا نويل الذي يحمل في جعبته السحر والمعجزات.

وأجيب باقتضاب:

- لقد ماتت جدتي، وذهبت معها معجزاتها إلى غير رجعة.

- لكنك تملك بعض حيلها. لا تنكر هذا. لقد أخبرتني من قبل أنها علمتك الكثير قبل موتها.

بالفعل كنت قد أخبرتها بذلك. وكان هذا خطئًا أدفع ثمنه طوال الوقت. ما زال ما حدث مع فريدة ماثلًا أمام عقلي.

- الحيل التي تعلمتها لن تمنع الألم عن عمرو حين أخبره بالحقيقة.

- قد تجد تعويذة أو شيئًا ما يقرب بين عمرو وأسماء. السحرة كلهم يفعلون هذا طوال الوقت.

- ربما يفعل السحرة هذا، لكنني لست بساحر.

- لكن جدتك كانت منهم. فتش في كتبها وأغراضها، ربما عثرت على حجاب ما أو تعويذة تفلح في هذا.

امتازت ريم بعنادها وتشبثها الطفولي بما يخطر ببالها بغتة من أفكار، وامتزت أنا بضعفي أمام حبها، وخسارتي في أي معركة أمامها. ولهذا لم تنته تلك المحادثة إلا حين وعدتها بالبحث عن حلٍّ ما.

نعم، كان هناك حلٌّ ما.. ولو لم يكن هناك حجابٌ يفلح في تقريب الأحبة، فماذا يفعل الدجالون والسحرة في كل زمان ومكان.



إن الحب والكراهية والجمع بين المحبين والأزواج والتفريق بينهم هو عمل الدجالين والسحرة الحقيقي.

وفي القرآن كان هناك طالوت وجالوت. كانا ملكين وقد هبطا لتعليم السحر للبشر، وكان من سحرهم تعاويذ وطلاسم يفرقون بها بين المرء وزوجه.

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»

وكانت جدتي تجيد مثل تلك الأمور، وكانت تقوم بصناعة «العمل» والأحجبة لمن يلجأ إليها. فلم تكن مساعدة تلك المرأة التي هجرها زوجها من أجل أخرى بالشيء الصعب عليها. يكفيها أن تعطي المرأة البدينة حجابًا ملونًا تخرجه من جرابها الصوفي، ثم تخبرها كيف تستخدمه لتنتهي مشكلتها.

هل كانت تنجح؟

بالطبع هذا ما كان يحدث. كنت أعلم هذا حين تعود صاحبة الحجاب ثانية متهللة فرحة، وهي تشكر جدتي على صنيعها وقد أفلح، وهي محمّلةٌ بالهدايا والأموال.

ولا شك لدي أنها ماهرة في مثل تلك الأمور حين أرى هذا العاشق النحيل العليل الذي أتى ليسأل جدتي أن تساعده وأن تقربه



بوسيلة ما لحبيبته التي لا تريده. فتعطيه جدتي حجابًا آخرَ، ليعود بعد حين ليقبل يديها، وربما قدميها وهو يبشرها أن حيلتها قد نجحت.

وعدت لحجرتها ثانية وقد أقسمت من قبل ألا أفعل. يرتجف بدني من بردها العجيب وأضيء المصباح. وكان كل شيء بها على حاله. الفراش النظيف، والأغراض المكومة في أحد الأركان والبساط الصوفي والخزانة الممتلئة بأغراضها وكرتها البلورية والمشمل المعدني في منتصف الحجرة، والتماثيل المخيفة التي ترمقني محذرة من الاقتراب منها، وفوق كل هذا رائحة جدتي وأنفاسها التي أشعر بوجودهم الأثيري في فضاء الحجرة.

وأفتش الأغراض بحثًا عن الجراب الصوفي الذي كانت تحتفظ فيه بأحجيتها. لم يكن بين الأغراض المكومة ولا أسفل البساط ولا تحت الفراش أو بين طياته.

لم يبقَ أمامي غير الخزانة، ورحت أنقب بين أغراضها حتى وجدته. كان يحوي الكثير من الأحجبة الورقية المطوية على بعضها وكل منها مربوط بخيط حريري رفيع. نصفها كان يحمل اللون الأحمر والآخر كان يحمل لونًا أخضر، وقد غمرت النقوش والطلاسم الغامضة المدونة بالريشة والحبر الأسمر كل فراغ في سطحها.

وتوقفت في منتصف الحجرة حاملا الجراب المغلق عن أسراره، وأنا لا أدري أيها يفرق بين المحبين وأيها يجمع.

وتحدث المنطق في رأسي. الأحمر حتمًا يفرق، والأخضر يجمع ويؤلف. الأحمر يعني الخطر والأخضر يعني الأمان. الأحمر يعني



الدمار والأخضر يعني الخضرة والأشجار والحياة. الأحمر يحمل التحذير والأخضر إشارة العبور والأمان.

وقررت أن أستعين بالأخضر. لكنني وقبل أن أنصرف قفز لعقلي خالد ومعاناته مع سارة. أعلم أنه يستحق تلك المعاناة وما هو أكثر، لكنه رغم هذا صديقي. في النهاية هو لن يحب سارة أبدًا وقد ملَّها هكذا، ولن تنال منه أبدًا ما يرضيها، ويومًا ما ستبوء بالفشل وخيبة الأمل فيه. لتبتعد عنه الآن قبل الغد، وليكن الفراق دون أن تشعر بل وبرغبتها الكاملة كما تفعل تلك الأحجبة.

ارتاحت نفسي للأمر فحملت حجابًا أحمرَ مع الأخضر وغادرت الحجرة. وفي اليوم التالي قابلتهما ووضعت الحجابين في كفيهما. كانا جيراني وجيران جدتي طوال عمرهما ويعرفان ما كانت تفعله، فلم يكن عسيرًا أن أقنعهما بفائدة الحجابين. في الواقع تقبل كل منهما حجابه بأمل ، مسرورا، بل وأخبرني خالد أنه سيقبِّل يدي وقدمي لو نجح الأمر.

كان على عمرو أن يذيب الحجاب في الماء وأن يلقي هذا الماء في طريقٍ تسير عليه أسماء. وكان الأمر ممكنًا فشرفته في مواجهة شُرفتها تمامًا، وفي الثالثة فجرًا حين صار العالم أجمعَهُ أسير عوالم النوم الخفية، بلل الحجاب في كوب الماء، وراقب الشارع المظلم الساكن، وحين اطمأن نثر الماء الذي في كوبه داخل شرفتها ثم أسرع عائدًا إلى حجرته وقلبه يدق بعنفٍ.

أما خالد فكان أكثر جرأةً منه وأثبت جنانًا. اتصل بسارة في الصباح وأخبرها أنه يريد لقاءها. ذوب الحجاب في عصير ثم أعاد



تعبئته في عبوته البلاستيكية، ولما قابلها أعطاها العصير، ولم يطمئن إلا حين شربته كله. ابتسم بعدها بثقة بعدها وتنفس الصعداء.

هل أفلح الأمر حقًّا؟!

تمنيت هذا وتوقعته.

لكن الأمور لم تجرِ كما خططت له. ويبدو أنني قد اقترفت خطأً رهيبًا.

وعلمت هذا بعد يومين حين اتصل بي عمرو وحدَّثني بصوت شبه باك.

- انجدني، أنا في ورطة.

كدت أن أسأله ماذا هناك، لكن جرس الباب دق بإلحاح، هرعت لأرى من هناك، وفور أن فتحت الباب وجدت أمامي خالد. بادرني بلكمة في صدري أذهلتني أكثر مما آلمتني، ثم صرخ في وجهي:

- ماذا فعلت بي أيها الأحمق. لقد صار الأمر كالجحيم. اللعنة عليك وعلى جدتك الساحرة اللعينة.

في هذه اللحظة أدركت أنني أخطأت، وعلمت حينها ما حدث.

بدأ الأمر حين خرج عمرو من باب عمارته في الصباح بعد يومين، وكانت أسماء في طريقها للكلية في نفس اللحظة. رأته فتجمدت في مكانها. اتسعت عيناها بغتةً، وفتحت فمها باتساعه. انتظر عمرو حينها أن تلقي بنفسها بين ذراعيه وقد ظنَّ أن الحجاب قد أتى مفعوله، لكنها صرخت بفزع حقيقي كمن رأى وحشًا، ثم تهاوت على الأرض وأجهشت بالبكاء.



تجمع الجيران والمارة حولها وبارتباك وفزع هرب عمرو من بينهم. وبعد ساعات في الجامعة كانت هناك. رآها فأراد أن يطمئن عليها. راقبها وتتبعها من بعيد كما اعتاد أن يفعل، لكنها لم تدعه هذه المرة. فما إن لمحته حتى احتقن وجهها الأبيض واندفعت نحوه بإصرار غريب أذهله فتجمد مكانه، وحين وصلته هوت على وجهه بصفعة شعرت بها الجامعة بأكملها.

تجمد الزمن برهة وظلل السكون كل من حولهما للحظة ترقبًا، قبل أن تبدأ أسماء صراخها وجنونها. راحت تضرب ما تصل إليه بكفها من جسده، وهي تصرخ في هيستيرية:

- لقد سئمت ما تقوم به، سئمت تتبعك إياي وملاحقتك لي في كل مكان كجرو حقير. هيَّا ابتعد عني أيها اللعين ودعني. لست أحبك ولن أفعل أبدًا. إنني أكرهك كالجحيم. ابتعد عني أو أقتلك. هل تفهم. ابتعد عني. ابتعد عني!!

كان الأمر جنونيًا وعقدت الدهشة لسانه فلم يتكلم، وتيبس جسده فلم يتحرك، تجمد أمامها حتى انتهى جنونها وجاءت أمواج البكاء والانهيار. حينها أفاق من ذهوله فراح يعدو مبتعدًا هاربًا من المكان كله، وفي بيته راح يبكي.

حينها اتصل بي ليفهم ما يحدث.

وكان الأمر مع خالد فكان أكثر جنونًا. تناولت سارة العصير ثم انصرفت راضية باللقاء. وبعد يومين في الجامعة كانت بانتظاره. كان بين صديقاته حينها وفوجئ الجميع بها تنحني نحوه لتقبل خده وهي تهتف بهيام:



- إنني احبك. أحبك جدًا.

بدا الأمر عجائبي غير مألوف خاصة من سارة، وانتبه الجميع لما يحدث. تخلص خالد من ذهوله وحاول أن يصرخ في وجهها لكنها استمرت في حماقاتها فحاولت أن تحتضنه، دون أن تكف عن بثه كلمات الحب والغرام. وارتفعت الضحكات الساخرة من حولهما، ثم حاولت بعض الفتيات تخليصه من بين يديها وإبعادها عنه لكنها ظلت ملتصقة به، وهي تتشاجر مع الجميع في غضب، وتصرخ بشراسة:

- اتركوني. إنني أحبه. لن أدعه يبتعد عني للحظة واحدة. إنني أحبه.

في النهاية خلّص نفسه منها وراح يعدو أمامها هاربًا، لكنها لم تدعه بل راحت تعدو خلفه، كان المشهد طريفًا فلم ينقطع الضحك والسخرية، لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد؛ فوجد خالد سارة تلاحقه حتى شارعه، وإلى عمارته، ثم توقفت أمام باب شقته.. وهناك راحت تطرقه بعنف وهي تصرخ بحبه.. تجمع الجيران وحاولوا تهدئتها لكنها ظلت بمكانها تصرخ في وجوه الجميع أنها تحبه.

غضبت أمه في البداية من الفضيحة التي تدور أمام أعين الجيران، وحاولت أن تضربها وتبعدها عن المكان، لكنها عادت لتشفق عليها، وقد رأت دموعها الصادقة التي تشي بحبها. أما أبوه فلم يحتمل الأمر فهوى على وجهه بصفعات حملها غضبه وهو يصرخ فيه:

- فضحتنا يا «ابن الكلب».

ولم يدرِ خالد ما يفعله فهرع إليّ.

وهنا علمت كيف أخطأت. كان الحجاب الأحمر لتأجيج الحب



وليس للكراهية أو إخماده. وكان الأخضر لبث الفرقة والكراهية والبرود. ولهذا فقد تضاعفت معاناة كليهما. فأسماء ازدادت نفورًا من عمرو فكرهته كما لم تفعل من قبل. وسارة قد ازداد هيامها وعشقها لخالد فلم تطق فراقه ولم تتمكن من كتمانِ حبها.

ولحقنا عمرو في شقتي، وأجهش في البكاء وهو يرجوني:

- افعل شيئًا أرجوك. لا أريد أن تنفر أسماء مني هكذا، لم أكن أدري أنها تكرهني لتلك الدرجة، لن ألاحقها ثانية لكن افعل شيئًا يخفف نفورها هذا مني، لا أريدها أن تصرخ في وجهي كلما رأتني.

أما خالد فكان أكثر شراسة وحِدَّة في حديثه وراح يهددني:

- انظر! لا يهمني كيف ستفعلها ولا كيف تبطل عمل حجابك اللعين هذا. لكنني أنتظر حلًّا سريعًا يخلصني من تلك اللعينة، لن أعيش وهي تطاردني هكذا.. هذا جنون.. جنون حقيقي.

وتهدج صوته وقد استحال أقرب للتوسل وهو يكمل:

- أنت لا تدري ما يقال عني الآن. لقد اتهموني بالنيل من شرفها، ولهذا تلاحقني، لقد أخبرني أبي أنه سيزوجني بها رغمًا عني درءًا للفضيحة التي حدثت.. هل تصدق؟ سوف أتزوجها وأنا لا أطيقها. افعل شيئًا يا رجل أو أقتلك وأقتل جدتك الراحلة نفسها ثم أقتلها وأقتل نفسي.

وغادرا المكان بعد أن وعدتهما بالبحث عن الحل. رحت أفكر: هل يمكن عكس تأثير الحجابين. أعني: هل لو استعمل خالد الحجاب الأخضر وعمرو الحجاب الأحمر سينتهي الأمر وتعود الأمور لسابق عهدها. أشك في هذا. لقد لازمت جدتي لأعوام



وأعلم أن تلك الأمور لا تسير أبدًا بمثل تلك البساطة. لذا كان عليّ أن أفتش عن حلٍّ آخر.

وبين طيات الكتب القديمة رحت أنقب وأبحث.. غرقت في الكتابات المتداخلة المكتوبة بالريشة والحبر الأحمر والأسود، والطلاسم غير المفهومة والتعاويذ الغامضة.

وبعد يوم وليلة عثرت على الحل: تعويذة قوية تكتب على لوح من العظم وتدفن في جوف نهر جار لإبطال تعويذة النفور. كانت هذه تصلح لعمرو فقمت بتنفيذها بمساعدته وألقيناها في قلب النيل. وفي اليوم التالي أدركنا أننا قد نجحنا.

أما خالد فإن ضميري منعني أن أقوم بالأمر نفسه معه، لقد حان الوقت ليدفع الرجل ثمن بعض أخطائه، كما أن الأمر ليس كارثة حقيقية لهذه الدرجة. فسارة تحبه وما زالت هي نفسها الفتاة الجميلة التي يتمناها الكثيرون، ولا أرى أن زواجه بها خطأ كبيرًا. كما أنها ستكون من يكتوي بعار الفضيحة وحدها لو أبطلت تأثير الحجاب عليها.

حدثته أنني لا أجد حلًّا لمشكلته، وقررت الاختفاء لبعض الوقت من أمام بصره.

لا أدري ماذا سيؤول إليه الأمر معه، لكنني أدرك أنه حتمًا سيتزوج سارة رغمًا عنه..

هل يحدث هذا حقًّا؟

هذا ما ستجيب عليه الأيام

***



الممثل

لا أحد ينسى الصفعة الأنثوية الأولى.

يومها أتت لي بغتة بغير نذير أو تحذير. أتت من حيث لا أحتسب أو أظن أو أنتظر. كانت بيد طالما احتضنتها وهدهدتها وقبّلتها؟

كانت بأنامل ريم؟

حبيبتي ريم!

في الجامعة كانت في مكانها المعتاد بانتظار بدء المحاضرات. ظننتها في انتظاري فابتسمت وتقدمت إليها. همست باسمها، فانتفضت ثم التفتت إليّ وعيناها متسعتان عن آخرهما. تجمدت بمكاني ذهولاً عما تبديه من دهشة وكأنما تراني للمرة الأولى، وشعرت أن بعض العيون من حولها قد انتبهت لما يدور بيننا، فقلت بإحراج:

- - ماذا هناك؟

زمت شفتيها وتقلص حاجباها وقالت:

- هذه وقاحة. أبعدَ ما فعلته بالأمس تأتيني الآن وكأن شيئاً لم يحدث.



وأعقبتها بالصفعة التي جمّدت الزمان والمكان وأتت بالصمت واجتذبت الذهول. لكنها لم تنتظر، وهرولت من أمامي مبتعدةً. تحسست اللطمة وانتبهت لمن يحملقون بي في فضول، فشعرت بالإحراج وأحسست بهول اللحظة وكان عليّ أن أبحث عن الفرار.

غادرت الجامعة كلها وأنا لا أفهم.

ما كل هذا الغضب؟

ولماذا صفعتني؟

بل وما الذي فعلته كي تغضب هكذا؟

هل هو جنون عرضيٌ ألمّ بها، أم تراها وشاية صدقتها؟

عليّ أن أفهم.

رحت حينها أفكر كالمحموم في تلك الألغاز التي تحيط بي منذ البارحة، فلم تكن تلك الحادثة الأمر الغريب الوحيد الذي يحدث لي منذ يومين.

اتجهت للمقهى، وانتقيت مقعدًا قصيًا، وطلبت الشاي والشيشة ورحت أفكر.

ماذا يحدث؟

بدأ كل شيء بالأمس. في البداية استيقظت وهبطت للشارع لأجد أحدَ الجيران يهنئني على المشاجرة. هنا ابتسمت ببلاهة وأنا لا أفهم، وهمست لمحدثي مستوضحًا:

- أي مشاجرة تقصد؟



رمقني الرجل حينها بدهشة أو غير تصديق كأنما أسخر منه ثم هتف:

- مشاجرتك مع كريم العبساوي. لقد كنت بطلًا يا رجل!

بالطبع لم أتشاجر مع كريم العبساوي، ولا أجرؤ على فعلها. بل لا أعلم من يقدر على مواجهة بلطجي مثله. كان يمتلك شراسة وعنفًا لا يرغب أحدٌ أبدًا في اختبارهما، لهذا لم أصدق ما يقوله هذا الجار عن تلك المشاجرة المزعومة، فابتعدت عنه بحيرة.

لكن الأمر تكرر ثانية، حين قال لي الحاج محمود الصواف صاحب كشك البقالة، وأنا أشتري منه بعض الخبز والجبن والكولا للإفطار، وصوته يعبق بالإعجاب:

- سلمت يداك يا أستاذ شريف. كان ذلك البلطجي بحاجة لهذا التأديب، لقد قمت بما يتمنى الجميع هنا القيام به.

ثم مال نحوي ناصحًا وهمس:

- لكن احترس يا شريف من ابن الحرام هذا ولا تطمئن له، ربما ترصّدَك وطعنك من الخلف، لقد أهدرت كرامته تمامًا في المكان، وقد يفكر في الانتقام منك.

تناولت منه الجبن وما زلت لا أفهم ما هذا الهراء الذي يُحدّثني عنه. هل يقصد مشاجرتي المزعومة مع كريم العبساوي. لست أنا حتمًا من قام بها. ولم أزعم يومًا أنني البطل الأثيني الشجاع، أو الفارس العربي المغوار الذي يقف أمام بلطجي مثل كريم هذا بل ويضربه.

هذا أمرٌ مستحيلٌ.



أذكر أنه قبل شهورٍ عاكس كريم إحدى الفتيات، تعقبها بإلحاحٍ، ولما أحنقها ملاحقته، التفتت نحوه وبصقت في وجهه، لكن الوقح لم يرتدع؛ فهوى على جسدها الضعيف بلكماته وركلاته، هنا أتى أخواها بالعِصيّ لتأديبه، كان يجلس بالمقهى حينها وحدث الشجار.. أخرج مطواته واندفع نحوهما، نال بعض العِصيّ وأصاب الاثنين إصابات بالغة في الوجه والأطراف والجسد فانسحبا من أمامه مقهورين.

إنه بلطجيٌّ لا يعرف الرحمة أو الحياء، لو عاش في الماضي لصار فتوة الحارة أو الزقاق أو الشارع الذي يرهب سكانه ويقتات من الإتاوات التي يُفرِضُها عليهم. ولو عاش في زمنٍ أبعَدَ لانتمى للشطار وقُطَّاع الطرق.

كان في بداية العشرينيات من عمره، مات أبوه وهو صغيرٌ وتزوّجت أمه من سباك سكير لم يحتمله فطرده للشارع، عمل في كل مكان ممكن ليؤمّن طعامه ومأواه. في المقهى والفرن وورشة الحداد وغيرهم، وحين شب طوقه بدأ في الانحراف.

تاجَرَ في الأقراص المخدِّرة والبانجو والحشيش، فجرى المال بين يديه وبدأ سلوكه الإجرامي في التبلور. كان يتشاجر طوال الوقت، ويفتعل المشاكل مع الجميع بلا مللٍ، حتى تحاشاه الكل تمامًا ورضخوا لسلطانه.

بل وحتى أنا لم أسلم من شرّه. طالما تحرَّش بي وطالما أخبرني أنه يكرهني لأني ابن الساحرة الدجالة كما يزعم. بالطبع كنت أتحاشاه تمامًا كالجميع وأحتمل سخافاته ولا أتذمر، في الواقع كم تمنيت أن الكمه



يومًا في أنفه، لكنني كنت أعي كذلك أمرًا مهمًا، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. ولهذا سجنت أمنيتي هذه بداخلي ولم أفصح عنها.

وأمام مدخل بيتي قابلت أشجان؛ جارتي المطلقة التي تسكن العقار الملاصق لبيتي، ترفع حاجبها الأيمن في احتفاء وتمط شفتيها وتهمس حين تصير بجواري:

- وحش بحق.

ثم تنهدت في إغراء وغمغمت:

- هكذا يكون الرجال!

احمرت أذناي من جرأتها هذه التي لم أعهدها، وهربت من أمامها وأنا لا أدري ما الذي تقوله ولماذا ترمقني بكل هذه الجرأة.

وفي المقهى كان خالد وعمرو بانتظاري استقبلاني بحفاوة استقبال الأبطال وأجلساني في المقدمة وهتف خالد:

- عاش البطل!!

وعقب عمرو:

- مرحبًا بالأسد.. اليوم أنا من سيدفع الحساب.

ينبض عقلي حيرة فأقول:

- لا تمزحان أنتما الآخران. ماذا يحدث اليوم، وهل جن الجميع؟

يرمقانني للحظة بدهشة ثم يقول خالد بحذر:

- لقد ضربت كريم العيساوي يا رجل، لم تضربه فقط، بل وأهدرت كرامته تمامًا.



- يبدو أنكما قد جننتما أنتما الآخران، أنا لم أفعل شيئًا من هذا.

ويردّ عمرو مؤكّدًا:

- بل فعلت يا شريف، كلنا شهد هذا في الصباح.

نبض عقلي بعنف وفكرت. هل يتعاون الجميع في الشارع على إثارة جنوني. أنا لم أرَ كريم هذا الصباح ولا الصباح السابق، فكيف أضربه، أنا في الأساس لم أغادر الفراش هذا اليوم إلا بعد الظهر.

- أنتما تتوهمان. أقسم إنني لم أفعل.

لكن الحيرة التي تتواثب على وجهيهما حقيقية بالفعل، ويعود خالد للتحدث بعد حين:

- لسنا وحدنا اللذين رأيا ما حدث، الشارع كله يشهد، لقد سببت فضيحة لذلك البلطجي.

ربما صرت أقوم بأمور وأنساها.. ربما أصبت بـ (الزهايمر) مبكرًا.. حسنًا، كلي شغف لمعرفة كيف تغلبت على ذلك الفتوة الذي لم يقهر من قبل.

- إذا هلّا ذكّرني أحدكما بما جرى.

ويسحب خالد نفسًا عميقًا من الشيشة التي بيده ويطلقه ويقول مستسلمًا:

- أنت غريب هذا اليوم يا شريف، لكني سأخبرك.

على ناصية الشارع في الصباح توقف كريم، استند على الجدار بمرفقه وبعينين لزجتين محتقنتين من إثر العقاقير المخدرة التي يتجرعها راح يتابع المارة. لم يحيه أحد مطلقًا.. في الواقع تعلم الجميع



هذا، ففي تلك اللحظات التي يصير فيها عقله مثقلًا بالمخدرات أو السكر فإنه لا يجيب تحية أحد، وإن فعلَ فكي يفتعل المشاكل.

وكانت تغريد تسير نحو مدرستها الثانوية برفقة أبيها كما يحدث كل يوم.. يبدو أنها راقته هذه اللحظة فترك مكانه ورسم أسوأ ابتسامة ممكنة على وجهه وتوقف أمامهما، فتوقف الرجل المسن بقلقٍ وتراجعت ابنته خُطوتين للخلف بتوتر، وقال كريم بلسان ثقيل:

- هل ترافقها إلى المدرسة يا حاج؟ حسنًا، يمكنك أن تستريح، سوف أرافقها بدلًا منك إلى هناك.

شهقت الفتاة وتوتر الرجل العجوز، وتمتم في ضعف:

- أشكرك يا بني. لكنني سوف أوصلها إلى هناك بنفسي، لا داع لأن تتعب نفسك.

- لكني أصر.. عُد لدارك يا هذا، وسوف أعتني بها، أم تراك تخاف عليها مني؟ ها.. ألا تثق فيَّ؟

قالها كريم بتحدٍّ فارتجف الرجل وهو لا يدري بما يجيبه. وحبَس كُلُّ من الشارع أنفاسهم في ترقب وعجز وخوف، وكلهم مشفق في أعماقه على الرجل ولا يتمنى أن يكون محله.

ومن الخلف هتفت أنا حينها كما أخبروني:

- الرجل لم يسألك خدماتك يا هذا، فلماذا تثقل عليه بلزوجتك هذه؟

هشمت كلماتي السكون فارتفعت الهمهمات بغتة والتف كريم نحوي بابتسامة تتأرجح بين السخرية والدهشة:



- ابن الساحرة يتحدث؟ يبدو أنه خارج وعيه يا رجال.. اسمعوا إنه يسبني!

رددت عليه بلا خوف:

- دع الرجل وابنته يواصلان طريقهما.

- وماذا إن أصررت على مرافقتها، هل ستمنعني أيها الأبله.

وقرن قوله بالفعل وامتدت يده نحو كف الفتاة فقبضت عليها، صرخت الفتاة وهي تنكمش فزعًا وتحركت أنا، وكانت أنفه أول ما وصلت إليه قبضتي.

امتلأ وجهه بالدم فحاول أن يصرخ في وجهي ويده تفتش عن مطواته في جيوبه، لكنني لم أمهله. الفتاة والرجل العجوز تراجعا وصنع المارة دائرة حولنا تحوطنا ولا تسمح لأيٍّ منا بالفرار، وتحررت كفي وقدمي.. كنت أضربه بعنف وقسوة كما أخبروني.

أضربه برأسي مرفوع لا يعرف الخوف، كل من يعرفني في تلك اللحظة أنكرني بشدة وهو لا يتخيل أن أقاتل هكذا، أركله أسفل ساقيه فيهوى وهو ينحني نحو الأرض، لأركله في وجهه فيسقط.. أسبه طوال الوقت بينما هو يصرخ ويتألم.

لم يجسر أحد على نجدته ولم أرحمه.. يقولون إني حطمت له سنتين.. يتحدثون عن عظام صدره المهشمة.. يتحدثون عن قدمي التي وضعتها فوق رأسه فألصقتها بالأرض لإذلاله.

وفي النهاية وقد همدت مقاومته تمامًا صرخت في وجهه:

- في المرة القادمة سوف أربطك على أحد تلك الأعمدة ولن يخلصك مني أحدٌ.. هل تفهم؟!



وابتسم الناس من حولي وأشرقت وجوههم فرحة بما جرى فصفقوا من أجلي بل وأطلقت إحدى النساء زغرودة، لكنني تحركت نحو الجسد المكوم على الأرض وهو يعوي في ألم وانحنيت نحوه وقلت:

- بالمناسبة اسمي شريف وليس ابن الساحرة، هل فهمت أيها الوغد؟ في المرة القادمة التي تنعتني فيه ب «ابن الساحرة» لن أكتفي بتهشيم سنتين فقط، بل سأهشمها كلها.

ثم بصقت عليه في احتقار وانصرفت.

كان هذا ما قصه عليّ صديقاي وأكداه. لكنني لا أصدق؛ فحتى لو أقسم الجميع أني فعلت فلن أصدق.. أنا أقوم بكل هذا! أنا أضرب بلطجيًا لم يقوَ عليه أحد من قبل هكذا! أنا أذله بل وأبصق عليه هكذا!!

إنهم يقصون الأعاجيب

وانتبهت لأمرٍ خطيرٍ. لو كنت قد فعلت كل ما قالوه فلن يصمت كريم على إهانته هكذا.. حتمًا سينتقم.. حتمًا سيبحث عن الثأر.. وبلا شك سيقتلني.

مشت بطني وقد انتصف الليل فغادرتهما بوجه غير الذي أتيت به. وكان منزلي مضاءً بأكمله حين دخلته. كان مظلمًا حين غادرته فمن أضاءه؟ دلفت بحذرٍ ووصل إلى سمعي تأوهات خافتة من حجرة نومي. هناك من يتألم بها. تقدمت إليها متحفزًا وأنا أفتش عن شيء ما أحتمي به وأنا أفكر من تراه داخلها..

هل يكون لصًا؟



وبالحجرة رأيت الجنونَ عينه. كانت جارتي أشجان راقدة فوق فراشي على جانبها الأيسر وقد أولتني ظهرها، كانت عارية تمامًا كما ولدتها أمها.. ملابسها بأكملها تناثرت على الأرض من حولي كأنما خلعتها في عجالة واكتفت ببعض الغطاء حول خصرها لم يفلح في إخفاء شيء منها.

هذه المرة أصيب لساني بالخرس وعقلي بالشلل. ما الذي أتى بتلك المرأة إلى هنا.. بل وماذا تفعل في فراشي.. شعرت بي فالتفت برأس يزينه شعر فاحم ناعم مبعثر ورسمت ابتسامة عذبة على شفتيها الجميلتين وعاد حاجبها الأيمن ليرتفع وهي تقول بصوت مبحوح:

- لماذا ارتديت ملابسك ثانية. لقد وعدتني بمرة أخرى، ظننتك بالخارج تستعد.

لم أدرِ وقتها كيف أجيب، وأنا لا أفهم ما يحدث، ثم جلست على الفراش فسقط الغطاء على ساقيها كاشفًا عن نصفها العلوي الثائر وواصلت حديثها وهي تغمز بعينيها:

- أنت وحش يا شريف.. ذئب بري حقيقي.. لا أصدق أنك بمثل تلك البراعة، لقد أنهكتني كثيرًا.

هل تعتقد تلك المرأة أنني قد فعلت معها شيئًا ما.. ما هذا الجنون الذي يحدث لي، وهل يصر الجميع على إيداعي مستشفى الأمراض العقلية.

ويطول صمتي وحيرتي وعيناها معلقتان بي وفي النهاية تقطب حاجبيها وتغمغم:

- ما بك؟ هل تشعر بالإعياء؟



وأتحدث للمرة الأولى. أشير لملابسها وأنا أشيح ببصري عن جسدها العاري وأقول بصوت مخنوق:

- ارتدي ملابسك وغادري المكان.

- ماذا؟ هل جننت؟

- سأمهلك عشر دقائق لتفعلي. سوف أهبط أسفل المكان لأراقب الجيران حتى تغادري.. لا أريد أن يراكِ أحدٌ ما.

وأغادر الغرفة ويأتيني صوتُ حيرتها وهي تردِّد:

- ما الذي أصابك يا هذا؟ أنت مختل بلا شك.

انتظرتها خارج البيت كله وأنا أدعو الله ألا يشعر بها أحد، إنها الجارة المطلقة الفاتنة الساحرة الممزوجة ببعض العبث.. كنت أرى دومًا الرغبة في عينيها وأشعر بدعوتها الخفية المتوارية خلف أهدابها لأقتحم عالمها.

إنها بحر لو ألقيت نفسي في خضمه فسوف أغرق، إنها موج ثائر لا يعرف الرحمة وأنا لا أعرف فنون العوم.. ترى ما الذي أتى بها اليوم، وكيف دخلت المكان، وكيف واتتها الجرأة لتكون هكذا على فراشي؟؟؟

ألغاز.. ألغاز.. ألغاز!!

ومعها يزحف عقلي نحو الجنون بخطًى حثيثة. مشاجرة لم أفتعلها وجارة في المساء على فراشي ثم غضب ريم الآن وصفعها إياي دون سبب.

هل أقوم بأمورٍ لا أدركها؟



سؤال يلح على عقلي.

يقولون إن مرضى الفصام يقومون بأمور مماثلة، وأنهم يعيشون بشخصيات عدة في وقتٍ واحدٍ. تطفو على السطح إحداها لبعض الوقت فتفعل بعض الأمور الغريبة، ثم تتوارى لتُفسِح للشخصية الأخرى أن تعبِّر عن نفسها.

أهذا ما يجري لي، وهل هذا يفسر تلك الأفعال العجيبة التي يزعم الكل أنني قمت بها ولا أدريها. وهل أحمل في أعماقي مستر هايد الخاص بي؟

ويعود رأسي لينبض في إعياء، وتتواصل الأسئلة وتختفي الإجابات ثم أتذكر ريم، وأفكر. عليَّ أن أعرف ما أغضبها.

أعود للكلية ثانية.. أتجاهل نظرات من شهدوا الواقعة.. وأبحث عنها فلا أراها، ربما كانت بالمدرج الآن. أتجه إليه وأدخله من الباب الخلفي، وأختار مقعدًا خاليًا في الصف الأخير وأفتش عنها بعيني.

وفي الصف الثالث كانت تجلس. لم تكن بمفردها بل كان هناك من يجلس بجوارها.

كان شابا!

واحتقن وجهي بالدماء الحارة.. مَن هذا ولماذا يميل نحوها هكذا ولماذا تهمس في أذنه هكذا.. هل استبدلتني به بتلك السرعة وهل اختلقت تلك المشاجرة لتبتعد. لا أصدق أن هذا ممكنٌ. الحياة ليست بمثل تلك القسوة والأمور لا تسير بسرعة هكذا.

تنهشني الغيرة وأتمنى لو تنتهي المحاضرة بسرعة لأرى من



يكون.. سوف أقتله! لقد اقتحم أرضي ومملكتي فلا كلام بعد هذا يقال.. لا شيء إلا القتال والقتل والتمزيق إربًا.

لكن مهلًا.. لماذا أشعر أني أعرفه، وهذا القميص اللبني المخطط ألا يشبه قميصي، وتلك الجلسة التي يجلسها ألا تشبه جلستي؟! أرتبك وأشعر أنني أنظر إلى صورتي بالمرآة من الخلف، وحين يلتفت نحوي في لحظة ما أدرك فزعًا الأمر المخيف.

إنه أنا!!

هل أهذي، أم تراني جننت حقًّا؟

الدوار يفترسني ويضطرب قلبي من المواجهة وأنا لا أفهم كيف ستكون.. أعلم أنني أنا شريف فمن يكون هذا الآخر، ومن أين أتى؟

أغادر مكاني وأعود لداري وقدماي تترنحان وأفكر في تلك الطامة، من أين ظهر هذا الآخر؟ وهل كان هو من قاتل كريم وغلبه؟ وهل كان هو من استضاف أشجان في الشقة وهل كان من أغضب ريم والآن صالحها.

أي جنون هذا الذي أحياه.

ويدق قلبي بعنف حين أشعر بباب البيت وهو يفتح. أيكون ذاك مثيلي، لو كان هو فليقدِّم لي الأجوبة.. ليخبرني من هو ومن أين أتى وما الذي يريده مني.

أغادر الغرفة فأراه.. وبينما الذهول يغمرني يبتسم هو بسخرية قبل أن يقول متهكمًا:

– مَن أنت؟



ما الخدعة التي يمارسها هذا. إنه السؤال الخطأ. الصواب هو: من هو وليس من أنا.. وأبحث عن أحبالي الصوتية ثم أقول بصوت مخنوق:

- بل من أنت؟

يحتفظ بابتسامته وسخريته ويجلس على الكنبة التي طالما رقد عليها «إيزار»؛ مساعد جدي الذي غادر المنزل حين ماتت، ويقول:

- تكرر السؤال يا شريف ولا تجيب.

نتبادل النظرات وأتمالك نفسي ثم أقول:

- لقد قلتها، أنا بالفعل شريف، فماذا عنك؟ من أنت، وأي لعبة تلك التي تقوم بها؟

هزَّ كتفيه وقال بهدوء:

- أنا أيضًا شريف، وهذا منزلي مثلما هو منزلك.

- مَن أنت يا هذا؟

أردد غاضبًا فيضحك ويميل نحوي ويجيب:

- ألا تمل من تكرار السؤال؟ انظر إليَّ وستعرف من أكون!

- بل عليك أن تمنحني الإجابة وسوف أكف عن السؤال.

- ولقد أخبرتك بالإجابة التي ترفض تصديقها.. أنا شريف.

يحتقني ببروده الذي لا أمتلك برودًا مماثلًا له، وأتمالك نفسي بصعوبة.. صوته نفس صوتي.. حركاته مماثلة حركاتي.. وجسده تمامًا كجسدي.. إنه أنا وكأنما أنظر في المرآة.. أيكون توأمًا لي، أم



[illegible]

- هل أنت قريني؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- إذاً ماذا تريد؟

[illegible]

[illegible]



أغمض عيني وأفتحهما، وأنا أنتظر أن يختفي، لكنه ظل موجودًا، بل وضحك وقد أدرك ما يجول برأسي.. ونهض نحولي. وكور قبضته ثم لكمني في صدري قائلًا بضحك:

- هذه لأؤكد لك أنك في كامل يقظتك ولا تحلم.. أنا موجود بالفعل، فلماذا يرفض عقلك أن يصدِّق.. أنا أمامك فعلًا يا رجل ولست وهمًا.

تؤلمني قبضته ولا أفكر في عراكه.. أمور كهذه لا يفلح معها العراك. لقد اعتدت العجائب والغرائب حين كانت جدتي حيَّةً. فلا ضيرَ من أن أتقبَّلها الآن مرة أخرى.. ليكن شريف آخر أتى من العدم، فما الذي عليَّ أن أفعله الآن.

- حسنًا.. والآن ما الذي تريده مني؟

يرمقني للحظة ثم يجيب ببساطة:

- لا شيء، فقط دعني أحيا.

- وهل منعتُك؟

- لم تفهم قصدي يا شريف.. الحياة لن تستوي ونحن الاثنان على ظهرها.. على أحدنا أن يتوارى.

أقول بحذرٍ:

- ماذا تقصد؟

- يا عزيزي هناك ما يمكن أن نقتسمه سويًا، هناك مثلًا المال الذي يمكن اقتسامه. يمكننا الحياة سويًا في هذا البيت.. يمكننا المشاركة في الملبس والطعام.. لكن هناك أشياء لا تقبل تلك القسمة. هناك ريم مثلًا.. هل..

لكني [illegible] من تلك اللحظة وأنا لا [illegible]
[illegible] بعدها. كل شيء [illegible] لكن [illegible] لا. لكنه كان أشبه [illegible]
[illegible] بسيارة الإسعاف [illegible] بالجالسين وأتصل
[illegible]

– لا أدري لماذا [illegible] كما [illegible] أعرف أنك لا
[illegible] لا تفكر في تلك الأساليب [illegible] حين [illegible]
[illegible] تلك الأمور لا [illegible]

– ابتعد عني [illegible] سوف أتركك [illegible]

– [illegible] وأنت [illegible]
[illegible] من الذاكرة [illegible]
[illegible] ومن المستحيل أن [illegible]
[illegible] اليوم؟ لقد [illegible]
[illegible] كنت [illegible] في نفس المكان [illegible]
[illegible] لقد كنت [illegible]
[illegible] حدث؟

[illegible] أن [illegible]
[illegible] حتى [illegible]
[illegible]

– لقد [illegible] لا يمكن هذا [illegible] هذا الوقت.

– أيها [illegible] كان عليه أن [illegible]

[illegible]
[illegible]



- أخبرتك أنني أعلم كل ما تفكر فيه.. أعلم كم تشتهي آشجان.. كم مرة حلمت بها، وكم مرة تمنيتها ورحت تتقلب في الفراش قبل أن تنام، الفتاة حلوة وهي الأخرى تريدك، فلماذا تعقد الأمر؟ لقد كانت هنا بالأمس. عرفت أنك قد طردتها، لكنني استمتعت بها كثيرًا قبلها.. إنها تستحق المخاطرة والجرأة يا عزيزي، يمكنك أن تجرب ولن تندم، يمكنني أن ادعوها من أجلك اليوم. ليس عليك أن تقوم بأي شيء، أنا من سيحدثها وهي لن تعرف أنك من كنت معها.

- لا شأن لك بي، أنا لا أريد شيئًا.

- بل تريد لكنك تخاف. تخاف من الفضيحة. تخاف أن يراك أحد، وتخاف أن تتعلق بك وتلاحقك بعدها.

- لا شأن لك بما أخافه أو أريده.

- بل الأمر من شأني، لقد صرت شريكًا في هذه الحياة ومن حقي أن أبدل قوانينها. لقد منعت نفسك من أمور أرغب فيها بشدة، بالمناسبة كنت أنا من ضربَ كريم.. ألم تتمنَّ هذا كثيرًا.

وهل أنكر أنني تمنيت هذا، أسأله السؤال الذي حيرني:

- ولكن كيف فعلت. كيف تغلبت عليه؟

- الأمر بسيط. إنه هش ضعيف لكنكم تخافونه، لقد نجح في صنع وحش داخلكم اسمه الخوف منه.. إنه يتغذى بخوفكم منه، ويستمد بأسه من ضعفكم. أنتم من جعلتموه يتوحش.. صدِّقني يا شريف، التغلب عليه لا يحتاج لمن هو أقوى. بل يحتاج لمن هو أكثر جرأة. لقد آلمته وأذللته، وتعمدت هذا، كي لا يكرر الأمر ثانية.



- سوف ينتقم، وربما كنت أنا الضحية.

- لا تقلق يا رجل، مثل هذا البلطجي يدرك قيمة القوة ويحترم صاحبها ويهابه، لن يتعرض لك ثانية وقد جرب بأسك. فقط لا تُشعِره بالخوف منك.. حاوِل أن تُذكِّره بإشارات خفية بالمشاجرة وسوف يرتعد خوفًا منك.

نتبادل النظرات المتحدية للحظة.. إنه أكثر قوة مني بالفعل وأكثر جرأة كما أرى، لا أدري كيف ينتمي لي كما يدّعي، ولا أدرى ما الهدف من وجوده بل ومن أين أتى؟

تلك الأسئلة التي لا يجيبها ويتهرب من إجابتها تثير حيرتي وجنوني. لكن عليَّ أن أفهم، وماذا بعد الآن. أتنهّد بصوتٍ مسموع وأعود لأسأله:

- والآن ماذا؟

- ماذا بماذا؟

- هل تفكر في قتلي؟

- ولماذا أفعل؟ سوف تتلاشى من تلقاء نفسك.

- لست أفهم..

يتحرك حينها نحو الباب ويقول وهو يفتحه ليخرج:

- ستفهم بعد قليل.

ويغادر البيت تاركًا إياي لحيرتي ثانية، إنه ليس قريني كما اعتقدت، وليس شبحًا أو مسخًا. كما أعلم بلا ذرّة شك أنه ليس توأمي.



إذًا من يكون، ومن أين جاء؟؟ وتطفو على سطح عقلي جدتي ثانية. أشعر أن أصابعها مغموسة في هذا الأمر رغم موتها. كان خاطرًا سخيفًا لكنه كان مُلِحًّا مغريًا. يخبرني مثيلي أن أحدنا عليه أن يتوارى ويذهب، ويلمِّح أنني من سوف يختفي وأنه لا حاجة به لقتلي.

هل يعني أنه سيدفعني للاكتئاب أو الجنون مثلا فأقدم على قتل نفسي أو الهروب. لو كان هذا ما يصبو إليه فلن يحدث. إنها حياتي وسوف أحارب للظفر بها.. لو كان على أحدنا أن يختفي فعليه أن يفعل.. إنه صورتي أنا.

أرقد على الفراش كما اعتدت أن أفعل حين أفكر، واستعيد بذاكرتي ما جرى في الأيام الأخيرة، حتما لا بُدَّ أن شيئًا ما قد جرى وأتي بهذا المثيل، لا أذكر أنني عبثت بكتب السحر القديمة لجدتي في الآونة الأخيرة، كما مضت حياتي مؤخرًا في إيقاعها الرتيب بلا جديدٍ يُذكر.. فماذا جرى؟

لم يكن هناك غير «إيزار» الذي عاد فجأة.

يدق قلبي تحفُّزا فأهب من الفراش وأستعيد ما تمكان.. كان هذا منذ أسبوع مضى؛ عدت حينها من الجامعة فوجدته في المنزل جالسًا على الأريكة صامتًا كما كان دائمًا. كان قد اختفى تمامًا يوم أن ماتت جدتي. كان تابعها الأمين ومساعدها لأعوام كثيرة حتى ماتت، فذهب إلى حال سبيله. كنت قد نسيته تمامًا، لكنه الآن قد عاد. تجاوزت ذهولي وسألته:

– لماذا عدت ثانية، وكيف دخلت المنزل؟؟



كنت قد غيرت قفل الباب حين غادر المكان بعد وفاة جدتي، فكيف دخل البيت وهو لا يملك مفتاحه؟ انتظرت الإجابة لكنه استمر في صمته ونظرته الرتيبة الباردة. أتوتر وأتذكر بغضي القديم كله له، لن يتكرر الأمر ثانية، ولن أحيا تحت سقف واحد مع إيزار. لقد ذهبت جدتي إلى غير عودة فلم يعد هناك متسعٌ له في هذا البيت.

لهذا حاولت أن أبدو حازمًا معه وأنا أقول:

- ما زلتُ بانتظار الإجابة، لماذا أنت هنا؟

لا يجيب كعادته، ويبدأ صوتي في الارتفاع:

- اسمع، لن يجدي صمتك أو غموضك الزائف هذا، أخبرني ماذا تريد أو غادر منزلي حالًا.

وظلَّ عمليًّا كما عهدته دومًا، رمقني للحظة بعينين ميتتين، ثم تحرك وغادر الشقة. وإن بقيت التساؤلات. لماذا أتى، وماذا كان يفعل بالبيت، ولماذا انصرف بسهولة هكذا؟!

أستعيد ذكرياته في البيت فتعبث عشرات الفئران في صدري.. ما أفهمه أن ذلك المخيف لا يقوم بأي شيء عبثًا. لقد كان هنا للقيام بمهمة ما. كان عليَّ أن أفهم.

يومها فتشت المكان كله كالمجنون بحثًا عن شيء قد يكون قد خبأه في البيت، وحين انحنيت أسفل فراشي وجدت تلك القنينة الزجاجية الزرقاء، تحسستها بحذرٍ، ثم احتضنتها بكفي فارتفعت حرارتها بغتة والتهب سطحها، فأفلتها بألمٍ لتتهشم على الأرض وينبعث منها دخانٌ أزرقُ عجيبٌ سرعان ما تلاشى في الفراغ.



العجيب أن زجاج القنينة الزجاجي تلاشى هو الآخر فلم أجد أثرًا لشظاياها، علمت أن الأمر يتعلق بالسحر، وأن المتاعب بانتظاري.

أتذكر الآن هذا ويتوهج الشك في أعماقي نحو تلك القنينة اللعينة.. هل عاد إيزار ثانية ليدس تلك القنينة بما تحويه من سحر، وهل أتي المثيل عن طريقها؟

أغادر الشقة كي لا يذهب بي الجنون. ويرمقني جاري بعين ممتلئة بالذهول قبل أن يتحدث:

- ألم تخرج أمامي منذ قليل. أنا لم أغادر مكاني ولم أرك تعود فكيف دخلت منزلك دون أن أراك؟

أبتعد عنه دون أن أكترث بإجابته وأتجه نحو المقهى.. ومن هناك يصلني صوتي صاخبًا ضاحكًا مصحوبًا بضحكات أخرى أعرفها، كان اللعين يمارس حياتي بحيوية ويحتلها، لو ظهرت الآن فسيخلق الأمر الكثير من البلبلة والتساؤلات التي لا أرغب في مواجهتها.

أتقهقر للخلف وأغادر الشارع كله.. أذوب في زحام المارة وعقلي يجاهد بحثًا عن مخرج لمأساتي تلك. على ذلك المثيل أن يذهب. علي أن أستعيد ما سلبه مني ذلك الوغد، لكن السؤال هو: كيف؟

ينتصف الليل وأعود لبيتي.. هل يكون هناك؟ الإجابة كانت حاضرة قبل أن أفتح باب المنزل.. آهات أشجان لا تتوقف من حجرتي حتى أشعر أن كل الجيران قد سمعتها.. أغلق الباب خلفي



وأتجمد خلفه مفكرًا فيما عليّ أن أقوم به. ثم يخرج هو في تلك اللحظة من حجرتي عاريًا لا يرتدي غير سرواله الداخلي.. يبتسم ساخرًا ولا يبالي بنظراتي النارية الحانقة ويقترب مني قائلًا:

- ما رأيك لو تجرب أشجان؟ يمكنني أن أتوارى وأدعها لك، سوف تمنحك من الأسرار والسحر ما لن تصدقه.. ما تفعله تلك المرأة لا يصدق.

تملكني الغضب وصحت بصوت مكتوم كي لا تنتبه أشجان لما يدور بالخارج:

- لقد تجاوزت كل الحدود، سوف تفضحني بحماقتك هذه، قد يشعر الجيران بما تفعله من أمور مشينة.

- ومن يبالي بالجيران. ليذهبوا إلى الجحيم.

- - لكنني أبالي. إنها حياتي تلك التي تُدمِّرها. لا تنسَ هذا.

- وهي حياتي أيضًا. هل نسيت أننا نتقاسمها الآن.

وقبل أن أنفجر في وجهه يأتي صوت أشجان من داخل الحجرة متسائلًا:

- هل معك أحد يا شريف؟

يرمقني بشماتة ويقول ساخرًا هامسًا:

- هيَّا أجبها، وإلا خرجت ورأتنا معًا.

أهمس ومن بين أسناني:

أيها الوغد!

ويضحك في سخرية، قبل أن يرفع صوته:

- إنني قادم يا فاتنتي، انتظريني.

تسأله ألا يتأخر، فيخبرها أنه في طريقه إليها، وما زال الشلل والعجز يعيقني عن القيام برد فعل ما. ويواصل حديثه:

- أقترح أن تقضي هذه الليلة في حجرة جدتك، حاول أن تسد أذنيك كي لا تسمع ما يدور، إنها ليلة صاخبة يا فتى.

أتمنى لو ألكمه في أنفه، أتمنى لو أطرده من المكان كله مع تلك الجارة المزعجة، أتمنى لو أقتله وأنهي وجوده من حياتي، أتمنى في تلك اللحظة عشرات الأشياء العنيفة وفي النهاية لا أفعل غير ما طالبني به.

ألزم حجرة جدتي وأجلس على البساط الذي يكسو أرضيتها وأحاول أن أتجاهل الجنون الذي يدور بحجرتي.

أشعر بأنفاس جدتي من حولي. أحس بوجودٍ أثيريٍّ لها في المكان، هل يشعر الموتى بما يدور لنسلهم، وهل هي شامتة فيما يدور لي أم تراها تأسى من أجلي.

وتتسلل إلى أنفي رائحة غريبة وقبل أن أفكر في منشئها، أفارق وعيي، وفي العوالم الخفية التي تلي بوابات النوم في أرض الأحلام والكوابيس كانت جدتي بانتظاري، تجلس على نفس البساط الذي بحجرتها، وبين كفيها تتألق بلورتها الزجاجية ومن كل مكان حولها تتفجر سحب الدخان، وأتمتم بيأس:

- جدتي!

تلتفت ناحيتي وتجيب بهدوء بوجه تنعكس عليه الظلال الحمراء:

- ليس بعد الآن. هناك حفيد آخر يا فتى.

- بل أنا حفيدك.. انظري إلي، أنا شريف.

- تعلم أنه شريف هو الآخر، كلاكما واحدٌ، لكنه ينتمي لي أكثر منك، إنه من سوف يعيدني ثانية.

أنهار وأبكي.. أستجديها أن أفهم:

- بالله عليك أخبريني مَن هو؟ أخبريني ما الذي يحدث لي.

تنهض بتثاقل وتتجه نحوي، يختفي نصفها السفلي في الضباب والدخان الكثيف، وتتسع عيناها وتميل نحو أذني وتهمس:

- سوف تذهب ليعيش هو، لقد أبيتَ مساعدة جدتك لكنه سيفعل، هذا ما يحدث.. سوف تتلاشى يا فتى.

وتضحك في جنون وهي تردد «سوف تتلاشى، سوف تتلاشى».

وأسد أذني بكفي وأنتحب. وفي اللحظة التالية أفيق.. ما زلت بالحجرة راقدًا على البساط وفوق رأسي كان متيلي بانتظاري، بادرني حين فتحت عيني قائلًا:

- حسنًا. أعتقد أنك تدرك الآن ما يحدث.

أشعر بوهن شديد وأقول بإحباط:

- لست أفهم شيئًا.

يعقد ذراعيه أمام صدره ويقول بهدوء:

- لقد زارتك جدتك في الحلم، وحتمًا قد أخبرتك بما يحدث لك.

أرمقه بخواء وخوف، وأشعر بوهن وضعف لم أحس به من قبل، تراودني رغبة قوية في الاستسلام والفناء، لا أرد فيستمر في حديثه:



- أنا مثيلك حتى هذه اللحظة، مجرد جبلة خارجية من الإكتوبلازم.. وعاء فارغ يحوي نسخة من عقلك، وذاكرتك ومشاعرك وأحاسيسك وآمالك. إن وجودي مستمدٌّ من وجودك. يمكنك أن تعتني استنساخًا منك، لكنني لم آتِ عن طريق المعامل والمختبرات، أنا وليدُ شيءٍ أكثر قوة وأعظم شأنًا.. أنا وليد السحر القديم.. هل تدرك ما يمكن للسحر القديم أن يفعله.

يتضاعف الوهن والعجز بداخلي، فأكتفي بالتطلع إليه وما زلت بمكاني راقدًا على ظهري. أرى جدية في وجهه أحفظها جيدًا. ما زال يملك وجهي وخلجاتي وما زلت أذكر كيف أكون حين أكون جادًا. يواصل حديثه ويجيب سؤاله.

- لقد امتلك السحر قبسًا من قوى الكون الأزلية القديمة، ورغم هذا تجاهلتم تلك القوة الرهيبة واكتفيتم في أيامكم هذه بالمعرفة والعلم. تجلون العلماء وتطاردون السحرة العظام وتزدروهم حتى اندثروا واختفوا وتواروا. لكن البعض قاومَ وظلَّ يتناقل فنون الظلام وقواه من جيل لجيل. وكانت عائلتك لقرون طويلة إحدى تلك العائلات العظام. توارث أجدادك فنونه وحافظوا على إرثه ونقلوه دومًا لأبنائهم. لقد كانت جدتك آخر السحرة العظام، وطالما رغبت في نقل الإرث إليك لكنك رفضت، كان إرث العائلة ليزول للأبد طالما ظللتَ على عنادك، وكان على جدتك أن تقوم بشيءٍ ما.

أغالب ضعفي وأسأله:

- وكيف تفعل وهي ميتة؟



- لقد احتاطت للأمر منذ البداية. كان هناك إيزار يراقب. لقد مضى زمن ولم تفعل شيئًا. لم تتلقَّ إرثك ولم تحاول استعادة روح جدتك، كانت قنينة السحر الزرقاء في كف إيزار طوال الوقت.. لهذا أتى ثانية، وضعها أسفل فراشك لتجدها، ومنها أتيتُ حاملًا قبسًا منك.

- لا أصدق أيًا مما تقوله!

يهز رأسه بأسف ويجيب:

- وهل يصنع هذا فارقًا. لقد انتهى أمرك. إنني هنا كي أتسلم الإرث بدلًا من.. كي أتعلم فنون الظلام ثانية وكي أورثها لأبنائي. إن روح جدتك ثائرة في انتظار أن تجهز لها وعاءً ماديًا للعودة لتمارس انتقامها. لقد أبيتَ القيام بكل هذا فجئتُ أنا.. ألا تتساءل لماذا أخبرك بكل هذا الآن؟

أبحث عن فضول بداخلي يدفعني للتساؤل فلا أجد. أشعر أنني قد انتهيت فما جدوى التساؤلات، لكنه يجيب:

- لأنك في طريقك للتلاشي، الأمر سوف ينتهي اليوم، إنه يومك الأخير يا شريف، صدقني لا أشعر بالسعادة لما يحدث، الأمر معقد ورغم كل شيء هناك ما يربطنا سويًا. لا أدري لماذا أشعر أنني أفقد أحدًا عزيزًا، لكن لا تقلق، سيمضي الأمر بهدوء لا مثيل له. لن يكون هناك ألم ولن تشعر بشيء. الأمر يشبه النوم تمامًا. ستغمض عينيك ثم لا شيءَ بعدها.

يوليني ظهره ويتحرك بعدها نحو باب الغرفة، ثم يتوقف و يقول دون أن يلتفت:



- سوف أغادر الآن، لن أحتمل أن أشاهد التحول أثناء حدوثه لن أعود قبل الغد، أتمنى لك حياة أسعد في العالم الآخر.. وداعًا يا شريف.

ويختفي من أمام بصري. ما زلت أشعر بإعياء لا حدود له وما زالت الرغبة في الاستسلام لما يحدث تتأجج في أعماقي. هناك هاتف في أعماقي يحدثني أن مثيلي لا يكذب. إن الساعات القادمة لي هي الأخيرة لي في هذا العالم.

لكن لماذا أشعر بكل هذا الخواء. لماذا لا أحزن على حالي، ولماذا أحس بكل هذا اليأس؟؟ ويمضي الوقت ويدق الهاتف، كانت النغمة المخصصة لريم.

أتذكرها بغتة وأتذكر كيف مالت على كتف مثيلي وكيف همس في أذنها في المدرج. يتبعث الغضب في أحشائي ثانية وأنا أدرك أنها ستكون له، أتحامل على نفسي وأتجه للهاتف لكنني أصل متأخرًا وقد كف عن رنينه. أنتبه إلى المرآة وعلى سطحها أكتشف أن التحول قد بدأ. بدا جسدي خلالها شفافًا في تلك اللحظة كالزجاج وقد ظهر من خلاله ما خلفه. أرفع كفي أمام بصري فأدرك أنها صارت كفًا شبحيه تُظهر ما خلفها.

وأعود لأحس بالرعب. لا أخشى الموت في الواقع لكنني لا أرغب في أن يفوز بريم أحدٌ ما غيري حتى لو كان نسخة مني.

لن أستسلم وسوف أبحث عن حل ما.

وأفكر كالمجنون ماذا أفعل.. وسطع في عقلي ذكرى مخطوطات



جدتي القديمة.. تلك المخطوطات التي تحتفظ بها في جوف الفراش والمصنوعة من ورق سميك مدبوغ.

في يوم من الأيام حدثتني جدتي عنه وقالت أنه أثمن ما تملكه. في يوم من الأيام حاولت إحدى تابعتها سرقة تلك المخطوطات وقد فشلت حينها ونالت عقابًا قاسيًا. في يوم من الأيام أخبرتني جدتي أن أفتش في تلك المخطوطات لو داهمني شرٌ لا قبل لي به. هل أخبرتني جدتي بهذا كي تجهزني لما يحدث الآن. وهل هناك شرٌ أقسى مما يحدث لي في هذه اللحظة؟

أعدو كالمجنون نحو حجرتها. أقلّب حشية الفراش وأفتش عن المخطوطات حتى أعثر عليها. ألقيها على البساط وأفضها وأبدأ البحث عن معجزة في اللفافات تنقذني. الوقت يمضي بجنون، والمخطوطات كثيرة ولم أصل بعد للمخطوطة التي بها شفائي، كانت هناك عشرات التعاويذ الرهيبة والطلاسم التي تفعل أمورًا مذهلة لا تُصدَّق. لكن ما قيمة كل هذا وأنا في طريقي للفناء.

تنفذ كفي خلال اللفافات فأُدرك أنني أفقد كياني المادي وأن النهاية قد دنَتْ بشدة. أحاول التركيز في بحثي وبصعوبة أفض اللفافات الباقية وكالمجنون أقرأ ما بها.

لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..

إنها النهاية إذا.. لم يبقَ غير مخطوطة أخيرة لكن اليأس قد تملّكني فغالبت نفسي بشدة كي أقرأ ما بها.

وكانت الأخيرة هي بغيتي.. أقرأها لأكتشف أنها رسالة من جدتي.



«لقد ورطت نفسك بعنادك أيها الشقي فيما يجري لك. وطالما تقرأني فأنت في سبيلك للفناء كما خططت، ومثيلك الذي صنعته يستعد للحلول بدلًا منك في حياتك. رسالتي هذه وضعها إيزار بين المخطوطات في نفس الوقت الذي وضع فيها القنينة التي أتت بالميل. وهذا يعني أنك ما زلت ترفض إرث أجدادك، وأن عليك أن تفسح المكان لغيرك، لكنني رغم كل شيء جدتك. ومهما بلغت القسوة في نفسي فعليّ أن أحميك للنهاية وأن أهبك فرصة أخرى.

لكن قبل أن تحصل عليها، عليك أن تفهم أنك في المقابل سوف تعيد قراءة تلك المخطوطات ثانية وسوف تتعلم أسرارها. سوف تبحث عن وسيلة لاستعادة روحي ثانية. عليك أن تقيم عهدًا بأن تقوم بكل ما ذكرته. أعلم أنك ستقبل لأن الرفض يعني الموت، فهل تفضّل الموت على القيام بما أطالبك به؟ لو كنتَ ذكيًا فلن تفعل. تذكر أن الموتى لا يستمعون بأي شيء، وإياك أن تنسى أنه لا يمكنك خداعي. لو تخاذلتَ ثانية فسوف أصل إليك مثل هذه المرة، وسوف أقضي عليك دون أن أترك لك فرصةً للنجاة.

والآن لأخبرك بالحلّ، إنه بقربك، أسفل الفراش، قنينة زرقاء تماثل تلك التي وجدتها أسفل فراشك من قبل.. كل ما عليك أن تجدها وأن تهشمها كالأولى.. بعدها ستنتهي متاعبك.

أتمنى أن تعثر على رسالتي هذه في الوقت المناسب فلا أحب أن أعود فلا أجدك.. إلى اللقاء.

تنتهي رسالتها وتفتش عيني أسفل الفراش عن القنينة..



بالفعل كانت هناك. أجُرُّ ذراعي الواهن نحوها وأحاول أن أقبض عليها، تخترقها أناملي دون أن تقبض عليها، أعاود الكرة فلا أمسك شيئًا. لقد صرت كالشبح.. أكرِّر المحاولة بلا جدوى. أشعر باليأس والقهر والحل بين أناملي دون إن أقدر على تنفيذه.. يا إلهي ساعدني.. إنها فرصتي الأخيرة.

وأستجمع قواي وأنجح هذه المرة. أقبض على القنينة الزجاجية وأرفعها بصعوبة وألقيها ثانية. تتهشم هذه المرة ومن جوفها ينبعث الدخان الأزرق.

أشعر بالإعياء بغتة ولا أشعر بشيء بعدها.

أفقت بعد ساعات. ومنذ اللحظة الأولى أدرك أنني قد عدت ثانية. استعاد جسدي كيانه المادي واستعدت قواي. اللفافات ما زالت بجواري لكن رسالة جدتي لم تكن بينهم. لقد ذهبت إلى حيث لا أدري.

هل انتهى الأمر حقًا.

أنتبه لهاتفي وأقرأ رسالة قصيرة من ريم.

«كيف اختفيت من أمامي هكذا، لقد شعرت بالرعب، هل تمارس إحدى ألاعيب جدتك معي؟

إذًا فقد نجح الأمر وتلاشى مثيلي. هذا يعني أن عليَّ أن أدرس المخطوطات القديمة كما طالبتني جدتي، لكن عقلي رغم كل ما حدث يأبى تنفيذ وصيتها هذه.



لكنها هددتني أن تعيد الكرة ثانية لو نكثت بعهدي هذه المرة.

أشعر بالرعب والسؤال يراود عقلي طوال الوقت.

هل تفعلها جدتي ثانية.

وهل تبعث مثيلًا آخر لي.

لا أدري!.

***



حكايات شتوية

(1)

مرة أخرى هو المساء البارد والمطر الكثيف والسماء المظلمة الملبدة بالغيوم والريح التي تزأر، والوحدة القاتلة، في ليلة شتوية طويلة لا نهاية لها كما يبدو.

البرد وحش بَريٌّ لا يعرف الرحمة، ينهش العظام فتنتفض وتئن، وفي كفّي كان كوب الشاي الثقيل الساخن، يقاوم كل هذا ويبث في يدي دفئًا مُحبَّبًا يذيب الدماء المتجمدة في العروق.

ومن المذياع يشق السكون والوحدة صوتُ أم كلثوم في أغنية قديمة، تُحيي حنينًا وشجنًا لماضٍ ولَّى ولن يعود.

«يا حبيبي..

الليل وسماه..

نجومه وقمره..

قمره وسهره..

وانت وأنا..

يا حبيبي أنا..»

الشوارع الفارغة والبيوت المغلقة على سكانها الذين يحاربون هذا المساء شديد البرودة بالنوم. بينما يلفح الهواء القارص وجهي بلا هوادة، وهناك تلك النشوة التي يحملها الشتاء إلى قلبي، ومن وراء كل هذا، حديث الذكريات التي تهب من رقادها لتبعث في نفسي من جديد.

ينتهي كوب الشاي فأفكر في إعداد آخر. وتمط أم كلثوم صوتها في مقطع من آخر من رائعتها

«والهوى..

آه منه الهوى..

آه..

منه الهوى..

سهران الهوا..»

فأتمنى لو أذوب في شدوها وأن أهتف مع جمهورها:

« الله.. الله يا ست»

لكنني قلبي المثقل بالهموم والذكريات لا يدعني لأفعل. أغادر الشرفة وعيناي معلقتان بالسماء المكفهرة الملبدة بالغيوم وأجلس على طرف فراشي. لا رغبة بي للمذاكرة في هذه الليلة وحديث الذكريات والأشجان يتردد في داخلي. في ليلة شتوية كهذه، وقبل



أعوام عشر أتيت إلى هنا للمرة الأولى. طفل يتيم فارقته أمه حين مولده ولحقها أبوه قبل أن يتم العاشرة من عمره. طفل وحيد مذعور تائه وجد نفسه بغتة في رعاية عجوز مخيفة لا يعرفها، وقد أخبروه حينها أنها جدته.

أتذكر تلك الليلة كأنها البارحة: تقبض واحدة من جيراننا القدامى على كفي الصغير وأنا بجوارها مطأطأ الرأس لا أرى أبعد من قدمي وتطرق باب جدتي وتنتظر. أرتعش للحظة فتهمس لي:

- لا تخشَ شيئًا، إنها جدتك.

لكني لا أعلم من تلك التي تدعى جدتي والتي لم أرها قبل ذلك، بل ولماذا لم يحدثني أبي عنها أبدًا؟

من أين أتت هكذا بغتة، وأين غابت كل تلك الأعوام التي عشتها؟

ثم ظهرت جدتي أمام الباب. تبصر عيناي قدمين رفيعتين في خُفٍّ ورديٍّ بإصبع واحد وقد استطالت أظفارها بشدة فبدت كالمخالب. تشير إلى جارتنا القديمة التي نسيت اسمها وتقول باقتضاب:

- هذا شريف، ابن ابنك.

وأرفع عنقي فأرى الوجه العجوز العابس، الممتلئ عن آخره بالتجاعيد، وأشعر بالرعب من العينين. لم أتبينهما تمامًا في تلك المرة. مجرد فجوتين في الوجه، مظلمتين تمامًا، وتحيطهما هالات كثيفة في سواد لا يقل عن العينين. وتهز جدتي رأسها وتلتقط كفي بأصابع نحيلة باردة وتقول لي بصوتٍ خالٍ تمامًا من العاطفة:



- مرحبًا يا شريف. سوف تُقيم معي الآن. هل أخبروك بهذا؟

وتغادر الجارة المكان وتغلق جدتي الباب خلفنا ثم تنحني نحوي وتبتسم عن فم فقدَ أغلب أسنانه وتغمغم بصوت مبحوح أرعبني رغم ابتسامتها:

- أنتظر أن تكون طفلًا مطيعًا وغير مزعج. لا أعلم كيف كانت حياتك قبل اليوم. لكن الحياة هنا تختلف. هناك قواعد عليك أن تلتزم بها، أهمها ألا تتدخل فيما لا يعنيك. وألا تكثر التساؤلات. إياك وحجرتي. لو دخلتها دون إذن فهناك عقاب لن يسرك. التزم بالقواعد ليمضي كل شيء بيُسر.

وأومئ برأسي دون أن أرد. وتُواصل تعريفي بالمكان. هذا هو المطبخ. وذاك هو الحمَّام وتلك غرفة الطعام وأما التي في نهاية الرواق فهي حجرتي. عليَّ أن ألزمها طوال الوقت. لا تلفزيون هنا ولا ألعاب كما حوت حجرتي القديمة. الأشياء الوحيدة التي تشبه الألعاب التي أعرفها هي تلك الدمى المخيفة التي بحجرتها أو التماثيل المرعبة المعلَّقة بالجدران.

قادتني إلى حجرتي. وضعت ملابسي في دولاب صغير وسألتني إن كنتُ جائعًا. في الحقيقة كنت جائعًا بشدة، لكنني كنت خائفًا. فتمتمتُ بصوتٍ خافتٍ لا أدري كيف أمكنها أن تسمعه:

-.كلا. أريد أن أنام.

تركتني حينها وأطفأت النور، ثم أغلقت الباب، كان هناك الطقس البارد وليل الشتاء الطويل، والخوف من الظلام وأنا



الذي لم أنم يومًا إلا والمصباح مضاءٌ، كل هذا أخذ يعصف بي. راح جسدي يرتعد. وبعد هنيهة رحت أبكي وأنتحب.

راحت مثانتي تتقلص والبول يحتشد داخلها. أرتعش ولا أقوى على مغادرة الفراش وأحاول أن أنادي جدتي فلا تطاوعني حنجرتي ولا يخرج الصوت من فمي. العاصفة خارج النافذة تزأر بتوحش والوحشة تلتهم روحي الصغيرة وخيالاتي ورعبي يعصفان بنفسي وتؤلمني مثانتي ودون أن أدري أبلل فراشي.

لا أفكر في تغيير ملابسي رغم كل البلل الذي يحيط بي في الفراش وبعد حين ألوذ بالنوم. وفي الصباح تأتيني ويأتي العقاب والغضب. تصرخ وهي تجرّدني من ملابسي المبتلة أن الرجال لا يبللون الفراش. ثم تضرب مؤخرتي العارية بكفين قاسيتين ولا تبالي بوجعي قبل أن تلبسني ملابس أخرى نظيفة وتقول لي:

– لا طعام لك اليوم. حين يقرصك ألم الجوع ستتعلم كيف تتحكم في مثانتك.

وتغلق حجرتي من خلفي لأقضي أسوأ يومٍ عشته في حياتي. ينهش الجوع أحشائي، ويمنعني الخوف منها وخشية عقابها أن أبوح لها بما أحسه. رحت أتلوى على الأرض والفراش وأمعائي تتقلص وتعوي طلبًا للقوت طوال اليوم دون أن ترحمني جدتي.

كان يومًا عسيرًا ظننته الأسوأ في عمري كله، لكنني كنت صغيرًا للغاية لأدرك أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم أغادر الشقة لشهرٍ كاملٍ. حاولت خلالها مدفوعًا بفضول



طفولي استكشاف عوالم جدتي الغريبة، لكنها كانت تراقبني وقطها الأسود المخيف وخادمها الضخم طوال الوقت.

وفي اليوم الذي غادرت الشقة للمرة الأولى أدركت أن الحياة ها هنا مختلفة في كل شيء عما عهدته. أرى طفلة الجيران التي في مثل عمري تقريبًا. أشعر بنشوة وألفة وأنا أرى كائنًا صغيرًا ينتمي إلى عالمي. أبتسم لها وأتقدم نحوها بخجل لأشاركها اللعب.

نتعارف في بساطة. أنا طفل وهي طفلة فلا تعقيد.

نلهو على الدرج وترتفع ضحكاتنا الصاخبة حتى تأتي أمها. تسألني بابتسامة مشرقة وكانت لا تعرفني:

– من أنت يا حبيبي؟

أجيب بخجل وأنا أشير لشقة جدتي:

– أنا شريف.. وهذا بيت جدتي.

يكفهر وجهها مرة واحدة وتجذب الطفلة الحائرة المضطربة من ذراعها وتقول بصوت مغاير:

– هذا يكفي يا فتى.. ابتعد عن طفلتي ولا تقربها ثانية.

وتختفي والطفلة في لحظة، ولا زلتُ بمكاني لا أفهم شيئًا ولا أدرى ما الخطأ الذي ارتكبته. كنت صغيرًا لأدرك أنها تراني حفيد الساحرة التي يخافها الجميع ويهابونها، بل ويكرهونها.

ومع الوقت أدرك أن ما فعلته تلك الجارة يتكرر طوال الوقت. يُعاملني صبي الفران بتحفظ. لا يبتسم البقال العجوز لي حين أشترى الحلوى منه كما يفعل مع أقراني. أحاول أن أبتسم في



الوجوه لألقى العبوس، أحاول المساعدة لو استطعت فلا ينالني غير النفور، حتى تعودت النظرات المستنكرة الغاضبة الكارهة التي يرميني بها كل من حولي.

كنت كوباء مُعدٍ يتحاشاه الجميع. وحين ضقت بتلك العزلة المريعة سألت جدتي عن سببها. ما الذي قارفته ليعاملوني هكذا. تجيبني بهدوء وكأنها تتوقع السؤال:

- لأننا أفضل منهم. لأننا الأقوى، إنهم يغارون منك ويتمنون لو كانوا مكانك.

لكنني لست أفهم أي تميز هذا الذي تدعيه، والكل يكن الكراهية لي ولها أو يعلنها.

وفي المدرسة يمارس معي الأطفال ألعاب القسوة المريعة، فيحبسونني في خانة الطفل المنبوذ، ويشكلون ضدي العصابات الصغيرة، ويتنافسون أيهم يجعل حياتي أكثر جحيمًا. في كل يوم مشاجرة وفي كل يوم أعود لمنزلي محمَّلًا بالمزيد من الجروح والخدوش والكدمات.

اعتاد الجميع مناداتي بابن الساحرة، ساخرين مني ومن جدتي، في البداية كنت أثور لكرامتي وأنا لا أفهم لماذا يفعلون هذا بي، فأتشاجر معهم، لكن تكاتفهم ضدي، وما كان يصيبني حينها من جروح وكدمات ودماء أقنعاني بالخضوع. أقنعاني أن أتقبل تلك التحرشات صاغرًا عاجزًا.

تعلمت الصمت وأتقنت العزلة والوحدة وأنشأت من حولي



شرنقة كثيفة من الكراهية للعالم كله. كان صمتي في البداية إجبارًا وخوفًا، وصار بعد ذلك نفورًا وملجئًا من الكل.

تسألني عن المدرسين والأساتذة؟

سيدهشك أن أخبرك أن أيهم لم يتحرك يومًا لنجدتي. بل ورأيت السعادة على وجوه بعضهم حين يتكالب الأطفال عليّ ويضربوني واكتفى الآخرون بتجاهل ما يدور من حولهم وكأن من يُهان حيوان أجرب لا شأن له. ويوم سقطت من حاجز السلم المرتفع تأكدت أنه لا أحد هنا يرغب في وجودي أو يكترث بألمي. لا أذكر إن كنت قد فقدت توازني يومًا فسقطت، أم أن هناك من دفعني من أعلى الدرج فوقعت.

مازلت أذكر الألم الشديد والنور يخبو من بصري ثم يعود. أتذكر صراخي ورعبي وأنا أرى قدمي وقد تدلت بجواري في وضع عجيب ينبئ عن تهشمها تمامًا. أتذكر التفاف الطلاب حولي في فضولٍ وترقبٍ خالٍ من الإشفاق. مضت حينها لحظات الألم كدهرٍ كاملٍ وأنا أنتظر النجدة قبل أن تنشق الصفوف عن أحد المدرسين الذي سأل بتوترٍ عما جرى، ثم رمقني بحيرة، قبل أن ينحني نحوي ويحملني فيشتد الألم..

أصرخ فيه أن يدعني وشأني لكنه لا يأبه بي ويذهب بي لمستشفى قريب حيث فقدت وعيي. أفقت فوجدتني في حجرة جدتي راقدًا على البساط. ساقاي عاريتان ومرجلها الضخم يغلي أمامها، وهي لا تكف عن تقليب ما به والدمدمة فوق سطحه بكلامٍ مُبهمٍ.



اللفافات المخلوطة بالجبس كانت ملقاة بإهمال حولي كأنما قد حلتها جدتي عن ساقي. وفوق رأسي كان «إيزار» تابعها الضخم، منتصبًا في جمود في انتظار ما يكون. انتبهت إلى جدتي فهمست:

– سوف تتألم قليلًا، لكنك سوف تشفى في الحال، لا حاجة بك إلى خزعبلات الأطباء ولا جبيرتهم السخيفة هذه. سترى أن جدتك أمهر منهم جميعًا.

أتذكر الألم فتنبض ساقي المهشمة بشدة كأنما تذكرت هي الأخرى ألمها. وتتصاعد الرائحة الخانقة وأفكر فيما تنتويه بارتياب. تنتهي وتصب في قارورة نحاسية صغيرة مليئة بالطلاسم والنجوم والأسهم، من سائلها الذي تعده، وتقربه من أنفي وتقول آمرة:

– اشرب هذا.

أزمق السائل كريه الرائحة، المائل للون الدم، وأتمنى ألا أفعل، وتترقرق في عيني الدموع المتوسلة، لكنها تكرر أمرها بجزم وإصرار، فأتجرع السائل اللاذع المر. تشتعل النار في جوفي في الحال وأشعر بعقلي يفور في رأسي ويغلي. أعاود الصراخ فيقبض إيزار على جسدي بإحكام ويقيدني، وبأنامل لا تعرف الرحمة تتحسس جدتي ساقي المهشمة ثم تضغط.

يصير الوجع كالبركان حتى أتمنى الموت أو الغيبوبة فلا أنال أيهما ولا تستجيب جدتي لصراخي أو ألمي. في النهاية حين أنهكني الألم والصراخ كفت عما تفعله. وقالت لي بظفر:

– والآن انهض. أريدك أن تمشي.



أنهض وقد شُلّ الألم تفكيري، لأكتشف أن ساقي المهشمة تحملني ببساطة دون وجع؛ لقد برأت تماما. وابتسمت جدتي بتفاخر وقالت:

- لقد عدت سليمًا كجرس يا فتى. والآن دعني وعُد لحجرتك، فجدتك مشغولة كما تعلم، هناك ما أقوم به.

وفي اليوم التالي كنت بالمدرسة، وظلت العيون تلاحقني بدهشة لا حدود لها من ساقي التي شفيت تمامًا في يومٍ واحد. وفي الحال تعالت الهمسات واتجهت سهام الشك كلها نحو جدتي. واتفق الجميع أنه السحر وحده من فعل هذا، وبدلًا من أن يبدي أحدهم سعادته بسلامتي ازداد نفورهم مني وازدادت الكراهية التي تنبثق من عيونهم.

تأكدت حينها أنني لا أنتمي أبدًا لهم وأنهم لن يتقبلوني يومًا ما.

هل فكر أيهم في يوم ما تأثير هذا في نفس طفل يتيم لم يتعد العاشرة في ذلك الحين. هل راود عقل أيٍّ من كل هؤلاء ما عواقب ما يقومون به.

صرت أكره كل شيء. حياتي، جدتي، وحدتي، زملائي والمدرسة والعالم أجمع. الكل ضدي دون أن أقترف جريمة فخاضت روحي حربها الخفية ضد الكل. لو أمكنني حينها أن أحطم العالم كله لفعلت. لو امتلكت الشجاعة لقتلتهم جميعًا ثم قتلت نفسي.. لكنني ويا للبؤس كنت أهاب الموت.

مضت السنون والعزلة من حولي تتسع، وأنا في عالمي أنكمش،



وبعد حين سئم الرفاق من تتبعي وإيذائي فكفوا عن ملاحقتي. ربما دفعهم هذا اعتزالي التام لهم، وربما ما لمسوه من ضعف لا أحاول مداراته، وربما هي تحذيرات لقنهم إياها آباؤهم وأمهاتهم.

صارت الحياة أكثر سلامًا، لكنني لم أغادر قوقعتي حتى انتهت المرحلة الإعدادية. وفي الثانوية اقتحم حياتي صديقاي الأثيران عمرو وخالد، رغم كل الهمسات التي يرددها الكل من حولي عني وعن جدتي. نجحا في جذبي من شرنقتي وإعادتي للانتباه للحياة ثانية. لا أدري حقًا كيف كنت لأغدو لولاهما في الواقع.

كنت حينها في فورة تمردي ومراهقتي وقد كرهت حياتي مع جدتي وقد حملتها الذنب كاملًا في كل ما يحدث لي وبدأت التمرد. ربما كنت لأصير معقدًا نفسيًا أو سفاحًا، وربما فعلت من المجازر والجرائم الوحشية ضد الجميع ما تتحدث عن الأقلام والأفلام والصحف.

ربما أتى صديقاي في الوقت المناسب قبل أن أفقد نفسي للأبد، وربما كانا رحمة من الله لي في ذلك الحين كي أرى جانبًا آخرَ مشرقًا في الحياة. تبدَّل حالي كثيرًا وفارقت عزلتي، إن صديقين حقيقيَّين يشاركانك تفكيرك وحماقاتك ونزواتك لجديرين بتبديد الكثير من العزلة.

لكن هذا لا يعني أن الحياة صارت أفضل، فمازلت أعيش مع جدتي وما زالت تقوم بالسحر - بل وتشركني أحيانًا في أعمالها الرهيبة - وما زال البعض يراني ابن الساحرة الشمطاء الذي ربما يشاركها في التهام قلوب الرضع وأكباد العذراوات.



كانت حياتي مع جدتي كابوسًا لا ينقطع، ولم تكن أبدًا لتصلح لتنشئة طفلٍ سويٍّ.

كنت لأصير مجرمًا لولا رحمة الله، لكن الندوب التي تركتها تلك الأعوام في نفسي ما زالت حية لم تمت بعد.

فهل يأتي اليوم الذي أنساها أو أنجح في تناسيها؟.

❋ ❋ ❋

(2)

هل تعرفون إيزار؟

لم أحب يوما ذلك الرجل، وقد كنت منذ الوهلة الأولى أخافه، كان خادم جدتي أو تابعها كما صححت لي بعدها وهي تطالبني ألا ادعوه ثانية بالخادم، ولم أعلم إن كان إفريقيَّ أم نوبيَّ أم هنديَّ الأصل. كل شيء من هذا كان ممكنًا.

كان متوسط الجسد رفيع الجسد ذو وجه برونزي يميل للسمار كالهنود. وكان يملك شعرًا مفلفلًا خشنًا وشفتين غليظتين كالزنوج الأفارقة. لكنه كان يدرك كل حرف من حديث جدتي أو حديثي كأنما تربى طوال عمره هاهنا. تملأ الأوشام ذراعيه المكشوفين صيفًا شتاءً وتزحف خلالهما حتى تغطي كتفيه. وفي أذنه اليسرى تعلق حلقٌ ذهبيٌّ كبيرٌ أدهشني في المرة الأولى.

رجل يرتدي حَلَق؟!

كان يقوم بكل شيء في المكان.. يعد الطعام الرديء لي ولجدتي، وينظف البيت.. يتسوق أغراض البيت وأغراض جدتي الغامضة، وينظم دخول زبائنها لحجرتها، بل وكثيرًا ما يشاركها طقوسها



الشيطانية. وفي المساء بعد أن ينتهي من كل هذا يتكوم على كنبة الصالة وينام كالذئاب بنصف عين مفتوحة.

ففي كل مرة أسير فيها بجواره وهو راقدٌ على كنبته وأنا أتعمد ألا أُصدر أي جلبةٍ كان يستيقظ. يهب من رقاده بنشاطِ مَن لم يعرف النوم، ويرمقني بعينيه الواسعتين الجامدتين كالزجاج ثم يستلقي ثانية. يحدث هذا كل مرة مهما كان الوقت متأخرًا ومهما حافظت على سكوني.

لم يهتم يومًا بالنظافة ولم أرَه يستحم يومًا وظل جسده طوال الوقت يرسل رائحة زيتية غريبة، ليست بالمحببة ولا بالكريهة. فقط تشعرك بالنفور. عيناه واسعتان جامدتان كأعين الدمى يحيطهما دومًا بطبقة كثيفة من الكحل تزيد من فزعي منه.

لم يتفوه بكلمة واحدة منذ رأيته. وكان يقوم بكل شيء بكفاءةٍ بصمتِ البكم. ظننته أخرسَ. وبعد أعوامٍ ابتسمت جدتي حين أخبرتها باعتقادي هذا. واصلت إعداد مخلوط غريب عجيب الرائحة وقالت ساخرة:

- الكثير مما تعتقده يا شريف خاطئٌ. لا تدع المظاهر تخدعك.

- أتعنينَ أنه يمكنه الكلام؟

- لم أقل هذا.

- إذا هو ماذا؟!! أبكم أم يتحدث. لست أفهم.

ترمقني بعينين غائرتين بعيدتين وتقول ساخرة بصوت كالفحيح:

- اعرف بنفسك. إنه أمامك، لماذا لا تسأله.



وأسأله حينها. يواصل ما يقوم به ولا يجيب. ألِحّ في السؤال، فيتوقف ثم ينظر إليَّ نظرته الزجاجية الشبيهة بعيون السمك الميت. أرتجف حينها وحين ينصرف عني أنصرف عن سؤاله وأبتلع فضولي في جوفي.

تلتف النساء حوله كالفراشات حول النار، كلهن يولينه الاحترام الذي يقدمنه لجدتي ويدسسن في كفيه الأموال بل وبعض الحلي الذهبية في أحيانٍ كثيرة. يسألنه أن يتوسط إليهن مع جدتي وبعضهن قد يرغبن فيه. لكنه أمام كل هذا كالصنم. الكل لديه سواء ولا تنال منه أيهن أي شيء. إنه تابع جدتي المخلص وقد ارتضى أن يكون هذا دوره في الحياة.

وفي الشتاء تبدأ الحكايات وتخلق الأساطير وتزدهر كائنات الظلام. وفي ذلك المساء كانت السماء غاضبة كما لم تفعل منذ وقت طويل. الريح تزار في الفضاء والسحب متراكمة متثاقلة بالأمطار والبرد لا يحتمل. وفي منتصف الليل بدأت الحفلة العاصفة. انهمرت السيول بغتة وراحت الريح تصفر بلا انقطاع وانقطع التيار الكهربائي كما ينبغي له لأن يفعل في أوقات كهذه.

يلازمني الأرق حينها ويضرب قلبي الفزع وأهاب الظلام، وحين أفشل في كتمان مخاوفي أتحرك مغادرًا غرفتي بحثًا عن شمعة ما تزيح الظلام وخيالاته.

لا أدري لماذا شعرت حين دخلت الصالة المظلمة باضطرب قلبي بلا سبب فتوقفت في منتصفها وأنا لا أدري ماذا أفعل.

إنني خائف!!

وأشعر أن سقف المكان يحوي المزيد. أرفع عنقي لأعلى وتتسع



عيناي محاولة اختراق الظلام الكثيف. والعجيب أنهما تنجحان. وحين غرة يبدو السقف رغم الظلام مرئيًا. كأنني اكتسبت مقلتاي مقدرة الرؤية في الظلام.

وكان هناك.

كان إيزار عاريًا كما ولدته أمه وقد تعلّق في السقف بأطرافه الأربعة كالخفافيش ورأسه مصوب نحوي يراقبني كما أراقبه.

كانت عيناه متسعتين عن آخرهما وعلى شفتيه الغليظتين ارتسمت ابتسامة مخيفة وقد أدرك أنني أراه.

كانت هذا اكبر من مقدرتي فهويت مفارِقًا الوعي دون أن أشعر.

أستيقظ فأجد ضوء الصباح يخترق نافذتي الزجاجية بينما يدخل (إيزار) الغرفة حاملًا الإفطار كما يفعل كل يوم. أصرخ كأنما رأيت شيطانيًا وقد عاودتني ذكريات الليلة الماضية فيتجمد في مكانه لحظة قبل أن يفسح المكان لجدتي كي تدخل لترى ما أفزعني.

- إنه شيطان يا جدتي.. شيطاااااان

أصرخ بها فتصيح في وجهي:

- صه أيها الأحمق.. إنه إيزار..

لكني لا أرفع بصري عنه وأواصل فزعي وجنوني:

- لقد كان معلّقًا في السقف في الظلام، إنه شيطان، شيطان لعين.

وتلطمني جدتي بغضب، وتقرب وجهها من وجهي اللاهث وتقول محذّرة:



- لا تتفوه بتلك الهراءات ثانية. لقد كنت تحلم. إنه كابوس أيها الجبان.

لكنني أعلم أنه لم يكن كابوسًا. فما زلت أشعر بالتوجع في جبهتي من أثر السقوط أمس.

يزداد نفوري من إيزار وأتحاشاه كالقط الأسود اللعين ويدق قلبي فزعًا كلما رأيته.. وفي ليلة شتوية أخرى أسمع الأنين.

كنت قد اعتدت على الكثير من الأشياء الغريبة التي تدور في المكان. كل من كانت لديه جدة تعمل بالسحر يدرك بسهولة هذه الأشياء، لكن الأنين في تلك المرة كان ملفتًا وغريبًا. فكرت أن أغادر حجرتي رغم تحذيرات جدتي ألا أفعل. وفي النهاية غالبت ترددي وغادرت الغرفة، ليزداد الأنين قوة.

وكان الصوت يأتي من حجرة جدتي!

أقترب منها بأنفاسٍ محبوسةٍ وخُطواتٍ خرساء فأرى الهول من فرجة الباب. كانوا أربعةَ رجالٍ ونساءٍ بملابس سوداء وأقنعة تخفي وجوههم، وخامسهم جدتي وبينهم يرقد إيزار. جدتي عن يساره وأحدهم فوق رأسه والباقون عن يمينه وبجوار قدميه. كانت جدتي تقوم بأبشع عمل تخيلته. كانت تشرح جسده بسكينها وتشق بطنه وصدره بينما استكانَ هو في هدوءٍ وقد أغلق عينيه كالموتى. الغريب أن ضبابًا أحمر كان ينبعث من جسده المفتوح والخمسة يدمدمون حوله بتعاويذ مبهمة لا أفهمها.

كانت جدتي جدتي تقتل إيزار. هذا ما كنت أراه. ومرة أخرى تضاعف الهلع في نفسي فعدت أدراجي وتقوقعت على نفسي في



فراشي ورحت أنتفض بردًا وهلعًا. لقد صارت جدتي قاتلة، بل وقتلت إيزار. بالطبع كنت أخافه ولا أحبه ولم يكن موته يحزنني لكن ما رأيته كان فوق احتمالي.

وفي الصباح كان هناك على باب حجرتي سليمًا كالجرس. وكان هذا مفزعًا أكثر من موته نفسه ودون أن أشعر رحت أبكي دون أن أجرؤ على الصراخ مرة أخرى.

هذا رجل كان ميتًا بالأمس يمزقون بدنه، واليوم أراه سليمًا معافى. هذا ليس بشريًا حتمًا. هذا شيطان رغم أنف جدتي وغضبها ورفضها تصديق الأمر.

وازددت نفورًا منه ومن جدتي كذلك.

ليتني أفارق هذا الجحيم الذي أحيا به. ليتني أقدر.

وتحتشد ذاكرتي بعشرات الذكريات عن الرجل. ما زلت أذكر كيف سمعت صوته للمرة الأولى. كانت جدتي خارج المنزل في إحدى ليالي الخميس كما اعتادت وكان يحدث القط بلغة لم أفهمها والقط يبادله الحديث. كان جنونًا حاولت أن أقنع عقلي أنه وهمٌ لم يحدث.

وبعد سبع سنوات وفي ليلة شتوية أخرى كانت حكايته الأخيرة. جدتي بالخارج والمساء كالعادة عاصف والليل يقترب من منتصفه وأنا حبيس حجرتي تتلاعب بي الخيالات. وبغتة أجد القط في الحجرة دون أن أدري كيف دخل. وللعجب راح يختبئ أسفل الفراش.

تملكتني الدهشة من فعلته التي لم يقم بها من قبل وتنامت لأذني الصرخات التي تأتي من الصالة وانقطع التيار الكهربائي لحظتها.



لم أجسر على مغادرة الغرفة وتوالت الصرخات المتألمة القادمة من الصالة. أعلم أن إيزار هناك وأتساءل هل يعذب هذا الشيطان أحدًا.

وأتصلص من ثقب المفتاح ورغم الظلام أرى الأشباح السوداء التي ملأت الصالة، وذلك الضوء الأحمر الذي أزاح الظلام، وأرى جسد إيزار المعلّق في الفراغ وذراعاه وقدماه مفتوحتان عن آخرهم وجلده يفور وينبعث منه أبخرة وردية خفيفة دون أن يكف عن الصراخ والعويل.

أتجمد في مكاني وأنا لا أفهم ما هذا الذي يحدث فلا أقدر على مغادرة المكان إلى فراشي كي أختبئ أسفل أغطيته.

يطول صراخه ويزول الجلد عن جسده وتبدأ العضلات دورتها في التحلل وتزداد الأبخرة الوردية كثافة وما زال إيزار يصرخ دون أملٍ في نجدةٍ. وفي النهاية يرفع أحد الأشباح ذراعًا عظميًا في الفراغ. يحرك قبضته لليسار فتنثني رأس إيزار في زاوية مستحيلة. يدير إصبعه العظمي في الناحية الأخرى فينثني ظهر إيزار حتى يتكسر في فرقعة مريعة مصحوبة بصرخة مكتومة. وحين تهبط الذراع تشتعل نيران زرقاء بغتة في جسد إيزار فأشهق هلعًا فتلتفت الأشباح كلها نحو باب حجرتي فأتهاوى فاقد الوعي كعادتي. إن ما يدور في هذا المكان اللعين فوق احتمالي ففي النهاية كنت صبيًا لم يتم عامه الثامن عشر حينها بعد.

وتعود جدتي في الليلة نفسها على غير عادتها. وأراها وهي ترمق الجسد المتفحم الذي التصق بالسقف. تتمتم بغضبٍ كلمات



لا أتبينها وتأمرني أن ألزم حجرتي فأفعل حتى المساء. أغادرها فلا أجد أثرًا للجسد المتفحم على السقف. وبالرغم من فزعي مما رأيته إلا أنني كنت سعيدًا. لقد ذهب هذا اللعين إلى غير رجعة. لقد كان شيطانيًا. أقسم على هذا.

لكن فرحي لا يطول وحين أعود من مدرستي بعد أسبوع من الحادثة أجد إيزار هو من يفتح الباب لي. أثب كالملسوع في فزع وأصرخ فتناديني جدتي وهي تأمرني أن أصمت. تقتادني من ذراعي المرتجف للداخل وأسألها بصوت مخنوق:

- هل هذا إيزار؟ ألم يمت!

- بلى. لقد مات إيزار فجئت بأخ له. اسمه إيزار أيضًا وهو أخوه التوأم. لكن لا تلقِ بالًا للأمر اهتم بدروسك. هل فهمت يا ولد؟!!

***

(5)

ومن أول الليلة الشتوية الطويلة في بدايتها لم تبلغ منتصفها بعد. وما زالت الذكريات تتسابق على ذهني بلا انقطاع. الرياح خارج الغرفة صارت عاصفة تزأر وتصفر. زادت انهيارًا وتطايرت قطرات المطر سيولًا تضرب زجاج النافذة بلا انقطاع. والبرد ظل يبلغ من قوته الآن حد اختراق العظام وبث الرجفة بها.

[illegible] بالمزيد من الغطاء، وأطفئ المصباح، [illegible] الذي [illegible] لم تقم [illegible] مساء ووقت [illegible] الليلة التي [illegible] بصوت [illegible]

«أنا لحبيبي وحبيبي لي».

[illegible] يا الله الرحيم [illegible] ولا [illegible] الرجال [illegible]



أريد أن أنسى. أريد أن أمحو كل تلك الشخبطات المريعة من صفحة روحي. أريد أن تعود صفحة روحي بيضاء ثانية من غير سوء. وأريد أن تفارقني الذكريات، وأن تستريح نفسي منها ولو قليلًا.

أبحث عن النوم عسى أن يأتيني بالسلوى. لكن عقلي يعاندني. أتذكر تدريبات النوم التي قرأتها غير مرة. وأفكر في تنفيذها. أغمض عينيّ وأكتم أنفاسي لعشر ثوانٍ ثم أحررها. أعيد الكرة غير مرة في انتظار أن يداعبني النوم. يزعمون أن هذا التدريب يقلل من نشاط الموجات الدماغية ويجعلها تصل إلى المراحل التي تحدث عادة في المراحل الأولى قبل النوم. أنتظر هنيهة ثم أتأكد أن النوم لن يأتي بهذه الطريقة.

وأفكر في حيلة أخرى. أتنفس ببطء وانتظام وأحاول طرد الأفكار عن عقلي. كلما لاحت فكرة ما أسارع بنبذها. لكن الأنفاس لا تلبث أن تضطرب والذكريات تعود لتنهمر. ويعود إلى بالي السؤال الذي طالما حيرني:

هل كانت جدتي تحبني حقًا أم تراها قبلت أن أشاركها الحياة بغير رغبة حقيقية بي؟

لم تعتد أن تجلس معي أو أن تهتم بشئوني. لم تسألني يومًا عن مقدار تقدُّمي في الدراسة. لم تهتم بمعرفة اهتماماتي ولا طموحي. لم تبد قط رغبة لمعرفة ماذا أخطط لمستقبلي ولا ماذا أنتوي أن أكون. لم تزُرني مرة واحدة في المدرسة، لم تحضر حفلة أشارك فيها، ولم تعنف مدرِّسًا لأنه أهمل تلقيني.



كنت دومًا خارج نطاق حياتها وحيز اهتمامها ولم تقربني إلا حين تحتاج إليَّ في عمل من أعمالها.

وفي ليلة شتوية مظلمة دعتني للجلوس بحجرتها. البرد والظلام ولهجتها الودودة أرعباني فراحت أسناني تصطك. حتمًا ترغب في إشراكي في أمرٍ شيطانيٍّ من أمورها الرهيبة. ذهبت إليها بتراخ فأشارت إليَّ أن أجلس بجوارها. ثم غمغمت:

- لم يحبني أبدًا أبوك رغم أني أمه. ألم يخبرك يومًا أنه يكرهني؟

أهز رأسي ببطءٍ نافيًا. ولا أدري لماذا تحدثني بهذا الآن. يظللنا الصمت للحظات ثم تعاود حديثها بصوت أكثر رقة لم أسمعه منها من قبل:

- الوغد هجرني و«استعرّ» مني. نظر إلى كما يراني الكل. ساحرة عجوز شمطاء شريرة. لم يهتم بمشاعري وحاجتي إليه بقربي، ولم يفكر يومًا في زيارتي أو الاطمئنان عليَّ. بدا وكأنه قد نسيني تمامًا.

وصمتت وقد تهدج صوتها. شعرت بالدهشة الممزوجة بالشفقة. جدتي القاسية التي لا قلب لها تشكو هجر ابنها لها حتى مماته.

. تنزعني من تأملاتي وهو تواصل حديثها بصوت باكٍ:

- إنها مهنتنا منذ القدم. هذا صحيح رغم أنك قد لا تصدق هذا. كانت هذه المهنة مهنة عائلتك منذ القدم. سِرُّنا الدفين الذي لم نطلع عليه أحدًا. ميراثنا السري الذي ينتقل من جيلٍ لجيلٍ منذ عهود الفراعنة والعماليق. لكنَّ أباك رفض أن يُصدِّق. رفض أن



يتسلم مكانه في تركته. لفظني حيث صار قادرًا أن يستقل بحياته ونعتني بالكفر.

وراحت تنتحب وأنا لا أصدق أن هذا يحدث أمامي.

جدتي؟!!

تلك الرهيبة القوية الصارمة تنال منها لحظة ضعف بل وتبكي هكذا. ربما هذا لا يحدث. ربما أحلم. نعم حتمًا هو حُلمٌ. جدتي لن تفعل هذا أبدًا في الواقع. جدتي لا تعرف الضعف. جدتي لا تبكي.

- لقد كنت أحبه. وانتظرته طوال الوقت. انتظرت أن أراه أمامي بغتة ليخبرني أنه قد عاد أو حتى أنه حتى يرغب في رؤيتي. لكنه ظلَّ جامد القلب فلم يفعل أبدًا. كنت قادرة على إجباره أن يأتي إليَّ رغمًا عنه. كنت قادرة على الإتيان به في أي لحظة بقواي. لكن ما جدوى هذا. ما جدوى أن يمكث بجواري وهو قد لفظني من حياته. صدقني يا بني لم أكن بقادرة على احتمال نظراته اللاعنة الرافضة لي. فضَّلت أن أتتبع أخباره من بعيد.

وشعرت بالإشفاق عليها. إنها في النهاية أم. أم ظلت تبحث عن ابنها الذي هجرها وتنتظره حتى مات، فلم تنل أمنيتها تلك أبدًا. هل كان أبي قاسيًا هكذا معها. ربما لا يروقه ما تقوم به من أعمال السحر والشعوذة تلك. لكنها أمه. ما الضير لو ابتعد عنها وحافظ على زيارتها من حين آخر.

هل أخطأ أبي؟

ربما.



وجففت دموعها التي لم أتبينها جيدًا في الضوء الخافت الذي نجلس فيه. وأطلقت ضحكة قصيرة مشروخة وأكملت:

- لقد كنت أراه طوال الوقت. لم يمضِ يومٌ دون أن أراه. رأيته في عمله. رأيته في منزله. رأيته مع أمك في زفافهما. كان وسيمًا جدًا. ياااه. كم تمنيت أن أحتضنه حينها وأن أقبّل جبهته وأن أبارك عروسَه. شاهدت هلعَهُ عليها خارج غرفة الولادة وهي تلدك. واخترقت غرفة الولادة ورأيتك وأنت تولد. قطعة من اللحم الملوثة بالدم محمولًا بيدِ طبيبٍ أصلعَ بدين ومقيد بأحشاء أمك بالحبل السري. كنت تبكي حينها. ما زلت أتذكّر صوتك الرفيع المزعج. لقد كان مزعجًا حينها أيها الأحمق. تمامًا مثلما كان أبوك حين ولدته. كنت تشبه تمامًا.

وتعالت ضحكتها وعادت لتمسح دموعها. وابتسمت وأنا لا أدري كيف رأت كل هذا. بدت لي في تلك اللحظة أفضل جدة في العالم. جدة لا أعرفها، أحبها وأتمنى لو أحتضنها وأخبرها بحبي. وقبضت على كفي وقربتني من بلورتها السحرية التي تستعملها في عملها. لمستها فتعكر سطحها وخرج منها بعض الضوء ثم بدأت الصور الحية تتحرك على سطحها:

- لقد سجلت كل شيء في بلورتي الرائعة هذه.. انظر!!

ونظرت ورأيت. رأيت الكثير منَ الذكريات رأيت أبي يتشاجر. رأيته يشارك أصحابه الضحك في العمل. رأيته يقبض على كفّي أمي بحنان وهما جالسان في كازينو على النيل. رأيته يخطبها وحدي



لأمي يضحك. رأيته وأمي في زفافهما. ورأيت أمي تلدني. ودون أن أشعر بنفسي رحت أبكي بصمتٍ وأنا أتذكرهما.

راقني أن أرى أمي حية على سطح البلورة تتحرك وتبتسم وتضحك. لم أرها أبدًا وقد ماتت وأنا ما زلت صغيرًا. لم أعرفها إلا من خلال الصور الجامدة. كانت المرة الأولى التي أراها هكذا. كانت أمي بالفعل. هذا المخلوق الرقيق الرائع كان أمي. هذا المخلوق الرائع الجميل مات بغتة تاركًا رضيعًا يتوق للمسة حنان واحدة منه. وشعرت بأنامل جدتي تحيطني بغتة وتضمني نحو صدرها النحيف العظمي فدنت رأسي فيه ورحت أنتحب. وهدهدتني وهي تقول:

- لا تعلم كم كنت سعيدة حين أتيت إليّ في المرة الأولى. لقد رأيت فيك أباك الراحل مرة أخرى. شعرت أنه هو من عاد. تمنيت أن أبكي أمامك وأن أحتضنك. تمنيت أن أخبرك أنني أشتاق إليك أيها الأبله. لكنني غالبت نفسي. لن أتعلّقَ بك ثانية. لن أتعود على الاهتمام بك. لن أمنحك حبي لتمنحني الألم والوحشة لو كبرت وقررت أن تهجرني بغتة كما فعل أبوك. لم أكن حينها لأحتمل أمرًا كهذا، وقد وصل قطار العمر لمنتهاهُ. قررت ألا أحتفل بعودتك.

وراح جسدها ينتفض وهي تبكي ولا زلت أبكي بين ذراعيها. وربت على ظهرها وقلت:

- لن أتركك يا جدتي، أعدك ألا أفعل.

لكنها قالت وهي تبعدني عنها:



- صه أيها الأحمق، لا تعدني بشيء قد لا تحققه بعد ذلك. يكفيني أنك بجواري الآن. لقد حان الوقت لأخبرك أنني أحبك كثيرًا يا بني. أحبك كما أحببت أباك من قبل وربما أكثر. لقد ضعفت العجوز ولم تعد بقادرة على كتمان مشاعرها. لكن إياك أن تستغل هذا. لن أضعف أمامك أبدًا.

وضحكنا بعدها كثيرًا. إنها ذكرى ليلة شتاء أخرى صارحتني خلالها جدتي بحبها لي وأجابت على سؤال طالما حيرني: هل تحبني جدتي.

لقد أحبتني تلك العجوز إذًا، لكن الأمر لم يختلف بعدها ففي اليوم التالي عادت جدتي الباردة القاسية مرة أخرى. غابت النظرات الحانية عن عينيها وعادت لعيدتها معي.

هل كانت ذكرى تلك الليلة وهم اختلقه عقلي أم تراها ذكرى حقيقية نادرة أتاحت لي معرفة الحقيقة.

من يدري؟!!!

***

(4)

تقوم جدتي بالكثير من أعمال السحر والشعوذة طوال الوقت. هناك دائمًا من ينتظر خدماتها ومن يبحث عنها. تقوم بها بمفردها حينًا وبمساعدة إيرار أو ذلك القط الأسود اللعين الذي لا أحبه. أو بمساعدة بعض أقرانها من المشعوذين الآخرين أحيانًا أخرى.

تعودت أن أمكث بعيدًا عن كل تلك الأمور، وألا يدفعني فضولي لمعرفة فحوى ما تقوم به. إنه عالمهم الذي لا أنتمي له، إذًا لأتقوقع حول نفسي في عالمي البريء ولا أعكره بتلك الممارسات الشيطانية.

لكنها لم تدعني، وبعد شهور من انتقالي للحياة معها أدخلتني عالمها رغمًا عني، ولم أقدر على الرفض.

ولا زلت أذكر تمامًا تلك المرة الأولى.

كانت هناك امرأة يبدو عليها الثراء الفاحش تقبع بجوارها ونادتني جدتي. جلست وطالبتني جدتي أن أرقد على ظهري بينهما ورأسي بين كفي جدتي. رمقتها بحيرة وخوف فأشاحت تلك المرأة بوجهها بعيدًا عني بينما قالت جدتي بهدوء:



- لا تخش شيئًا يا صغيري، الأمر سهلٌ ولن تشعر بشيء. سوف أسأل إيزار أن يجلب لك المزيد من الحلوى لو لزمت الهدوء.

ولزمت الهدوء تمامًا ليس من أجل الحلوى، لكن لأنني كنت مضطربًا خائفًا. تصاعد الدخان وغمرت رائحة البخور الغرفة وراحت جدتي تضغط على جبهتي في حركات دائرية وهي تمتم بكلمات غامضة. أغمضت عيني بعدها وكما وعدتني لم أشعر بشيء. وحين استيقظت كنت على فراشي ولا أحد بجواري. كان رأسي ينبض بقوة والصداع العنيف يلتهم عقلي وشعرت بالألم في جبهتي. تحركت نحو المرآة وهالني تلك العلامة الدامية المؤلمة على جبهتي. ماذا فعلوا بي ولماذا أشعر بكل هذا الألم؟

ولم أتمالك نفسي ورحت أبكي. أتى إيزار يستطلع الخبر ثم غادر المكان وعاد برفقة جدتي. ابتسمت في وجهي وألقت في حجري بكيس مليء بالحلوى وقالت لي:

- هذا من أجلك لأنك ولدٌ مطيعٌ.

- رأسي يؤلمني!!

- سيزول هذا حالًا. دعني أرى.

وأحاطت جبهتي بأناملها وراحت تمسد جلد رأسي وتتمتم. أبعدت يدها بعدها فزال معها الصداع العنيف كالسحر، وابتعدت وهي تقول بانتصار:

- أرأيت؟ لقد زال الألم. هل أنت سعيد الآن؟



وتكرر الأمر، وعلمت بعد حين لماذا تستعملني في بعض أعمالها. لقد كنت طفلًا وزعمت أن هذا يصلح في استدعاء الأرواح العصية. الأطفال يملكون أرواحًا نقية كماءِ جندول ولم تتعكر بعد بالآثام والشرور، وهذا يجعلها قويةً لا تُقاوَمُ.

في العادة تستعمل جدتي معاونين آخرين من بينهم إيزار في جلسات تحضير الأرواح واستجوابهم. لكنها تدخرني للأرواح القوية أو العنيفة. وفي كل مرة يكون هناك علامات دامية مؤلمة بجسدي تلازمه لفترة طويلة وفي كل مرة ينهشني هذا الصداع العنيف الذي يحتاج لمعاونة جدتي ليزول.

ظلت تمنحني حينها الحلوى أو الأموال وتمنع عني العقاب، لكنني لا أريد أيًا من هذا، فقط أتمنى لو تتركني وشأني، وفي ليلة شتوية بدأتْ أقسى التجارب التي عشتها في هذا البيت.

كنت بحجرتي وتصاعَدَ الشجار والأصوات المختلطة بالخارج. اعتقدت هذا الكن الوقت كان ليلًا وقد تجاوَزَ الوقت منتصف الليل ولم يكن هذا الوقت موعدًا لعُملاء جدتي. خرجت لأستطلع الخبر فرأيت إيزار على باب حجرتها المفتوح واقفًا وقد عقدَ ذراعيه أمام صدره. وهناك من يصرخ داخل الحجرة:

- أنت من تسبب فيما نحن فيه أيها الأحمق. سوف أقتلك من أجل هذا.

ويجاوِبُه صوت عصبي قوي هو الآخر. يقول معترضًا:

ومن أدراني أنه قد يموت. لقد دخل البئر ولم ينطق بعدها.



- هؤلاء السادة يرغبون في معرفة سِرٍّ ما حمله أحد أقاربهم الموتى معه لقبره. نحاول منذ مدة تحضير روحه لكنها لا تستجيب.

بالطبع هذا ما توقعته. لقد أتوا ليسألوا الروح المعذبة البريئة أن تمنحهم بعضًا من نفحاتها وأن تتصل بروح قريبهم النافرة. تسألني جدتي المساعدة. وهل أملك رفاهية الرفض. أتجاهل العيون المصوَّبة نحوي بترقب وأرقد بينهم كما أفعل كل مرة وأغمض عيني وأقول بآلية:

- أنا مستعد.

وتبدأ الطقوس وأغيب عن العالم. أفيق بعدها شاعرًا بألم حادٍ في ذراعي وصدري مصحوبًا بالصداع المعتاد. ومن الشجار المحتدم حولي أدرك أن الأمر قد فشل.

لقد عاندتهم الروح مرة أخرى ورفضت الإذعان لهم. كان هذا يحدث معي للمرة الأولى؛ فلم يفشل الأمر معي من قبل. لكن هذا لم يشغل بالي فالألم بذراعي ورأسي كان حادًا لا يطاق. أحاول أن أنبه جدتي وسط الصخب الدائر أنني أتألم وان تعالجني فلا يطاوعني صوتي إرهاقًا ولا تنتبه لي. وكان آخر ما سمعته قبل أن أفارق وعيي ثانية صوتها وهي تقول لهم:

- لَدي حل آخر ربما يفلح، لكنه خطير.

وكان الأمر خطيرًا بالفعل.. وكان الخطر كله من نصيبي وحدي!

لم يكن الرضوخ حينها ممكنًا فاعترضت على ما تقترحه جدتي، لكنها ألحت. بكيت وأنا أخبرها أنني لن أقدر لكنها وعدتني أن



يمضي الأمر على خير. لم أصدقها فالأمر خطير بالفعل. لكنها لم تتركني. وقد وعدتني بالكثير من الأموال التي يمكنني بها شراء كل ما أحب وأشتهي.

كانت بخيلة بشدة ولا تمنحني إلا القليل وكنت بحاجة للمال لأشتري الملابس الجديدة وهاتف محمول كأصدقائي وغيرها من أغراض المراهقين. لكن هذا الإغراء لم يفلح. رفضت بإصرار فاحتدت عليّ. وصرخت في وجهي:

- لن أتحايل عليك طوال الوقت. سوف تفعل ما أمرك به. هل تفهم. أم تراك تجهل أن بإمكاني إجبارك. والآن ما رأيك؟

وبكيت قهرًا ورضخت لها. أدرك أنها قد تحيل حياتي لجحيم حقيقيٍّ يفوق ما أنا مقبل عليه من فزع. وفي مساء الليلة التالية كنا في المقابر برفقة أولئك الخمسة الملاعين في إحدى القرى الجبلية لمحافظة سوهاج.

السماء غاضبة مما نحن مُقبلون عليه، تصب على رؤوسنا جام غضبها وثورتها والأمطار لا تكف عن الهطول والريح تعبث بنا حتى تكاد أن تقتلعنا من أماكننا. ليلة شتوية أخرى تروق للشياطين، والمسوخ والوحوش بانتظار الأضحية الجديدة التي هي أنا هذه المرة.

وتخبرني جدتي بالهول. هذه المقبرة هي مقبرة صاحب تلك الروح العصية التي رفضت محاولتنا لتحضيرها. وهؤلاء السادة ينبشون المقابر القديمة والأرض بحثًا عن كنوز الفراعنة وذهبهم.





تبرق السماء بغتة ويزأر الرعد فأرتجف وتشير لي أنّ الوقت قد حان. أتمنى لو أهرب أو أعدو إلى أي مكان آخر، لكنني أتحرك نحو القبر رغم كل هذا. أنظر إليها برجاء عسى أن تقلع عن ما تنتويه لكنها تهمس لي:

- اطمئن لن يصيبك سوءٌ. لقد أعددت العدة لأي شيء. ستعود لي سالمًا.

أتعثّر للحظة على باب القبر. أتمالك نفسي دون أن يساعدني أحدٌ ثم أهبط. الرائحة عفنة لا تُطاق، والظلام سرمدي لا حدَّ له. وقلبي لا يكف لحظة عن الارتجاف وأصيح فيها.

- أريد مصباحًا، لا أرى أيَّ شيء أمامي.

- هذا غير ممكن. يجب أن يتم الأمر في الظلام. لكن إياك أن تغلق عينيك. لن يطول الأمر فنحن بجوارك. سوف نغلق الباب خلفك الآن.

ويغلقون الباب فيختفي العالم وأصير وحيدًا مع تلك الجثث المتحللة العفنة. هل يتخيل أحدهم أن يختبر صبي في السادسة عشر من عمره خبرة كهذه؟

أفتش عن رأس الميت وتصدم كفي بعشرات الأشياء اللزجة التي هي حتمًا لحمه المتحلل. أصل لرأسه ووعيٌ يكاد أن يفارقني وأشعر أنني سأموت فزعًا بعد قليل. أتذكر التعويذة التي حفظتني إياها جدتها مرارًا فأبدأ في تلاوتها.

صوتي لا يكادُ أن يفارق حلقي المرتجف لكنني أواصل. عليَّ أن



أنتهي من الأمر بسرعة قبل أن ألحق بهذا الميت. وتجوب عيناي الظلام الرهيب محاولة اختراقه دون جدوى.

أشعر بوجود أولئك الغامضون من سكان القبور من حولي. أرى بعيني الخيال عشرات العيون التي تحدق بي ساخرة في انتظار اللحظة المناسبة للظفر بي وتستمع أذناي للهمسات الخفية التي تصدرها أنفاس أولئك الغامضين.

أواصل ترديد التعويذة وأشعر بالألم العنيف في صدري وتهتز الرأس في كفي كأنما تتحرك وأشعر بالتيار الكهربائي الذي ينتقل من الرأس الميت عبر ذراعي إلى رأسي.

وفي اللحظة التالية أراهم. أرى عيونهم السوداء المجوفة ورؤوسهم غير الآدمية. أرى أجسادهم الزاحفة المنتصبة. وأرى الغضب الذي يغلف محياهم. لقد حضرت وحوش الكوابيس نفسها الحفلة. ودون أن أدري بنفسي أغمض عيني متجاهلًا تحذير جدتي ألا أفعل هذا وأصرخ قبل أن أفارق وعيي كما يحدث دائمًا.

كان الأمر كارثيًا. وعلمت أنني فقدت وعيي لأسبوع كامل. ظلت الحمى تلتهم جسدي بلا انقطاع وفمي يهذي بالخيالات المرعبة طوال الوقت بينما تحاول جدتي إبرائي عما حدث لي.

لقد ظفرت بي شياطين الموت القديمة. وكل من تصل إليه تلك الشياطين يموت. تعلم هذا جدتي لكنها لم تيأس. تبحث في كتب السحر القديمة وتستدعي ملوك الجان والشياطين سائلة النصيحة.



تريق من أجلي عشرات الدماء للحيوانات البرية دون جدوى. وفي كل لحظة تترحرح روحي قليلًا نحو العالم الآخر.

أتحرك بينهم كالمومياوات ويهابني القط للمرة الأولى. ويتحاشاني إيزار برعب ويرتفع جسدي في الهواء وأصدر من حلقي أصواتًا شيطانية مفزعة. قبل أن أتهاوي ثانية نحو عالمي الغامض.

كل هذا وأنا في عالمي الغامض لا أعي شيئًا. تسقيني جدتي الأعشاب الغامضة وهي تقسم على الشياطين بعزائمها وطلاسمها فيزداد جسدي الذي نحل ارتجافًا.

كان كل شيء ينبئ بالفشل. لن يحتمل الصغير كل هذا وستلتهم الشياطين روحه قريبًا. وتبكي جدتي عجزًا وتنتحب. ولأنها لا تعرف اليأس تواصل البحث.

وبمصادفة غير مسبوقة تعرف ما عليها أن تفعله. تصطحب الجسد الضعيف نحو المقابر. وفي جوف قبر تكفنني وترقدني. وتغلق الباب على كلينا وتبدأ طقوسها التي تنتهي بدم حيوانٍ جديد.

كانت جدتي ساحرة قوية. ساحرة تعلم من الأسرار القديمة ما لا يعلمه الآخرون. وكانت تسعى لاستعادة روح حفيدها الوحيد فباركتها الشياطين السفلية وساعدتها في مسعاها وأفقت لأجدني في ظلام القبر مكفنًا جوارها وهي تحتضن جسدي وتُتَمتِم.

كنت واهنًا كالمحتضرين. كنت هزيلًا كضحايا المجاعات. وكنت فزعًا كطفل نعت به الأشباح والعفاريت.



حملني ايزار للبيت. ورويدًا رويدًا رحت أستعيد صحتي وعافيتي لكن فزعي لم يضمحل. ما رأيته كان أبشع من أن أنساه. وبعد شهرٍ سألتني جدتي السؤال الذي أعلم أنها بانتظار إجابته طوال الوقت.

- هل نجح الأمر؟

كانت تسألني هل نجحت في امتلاك ذاكرة ذلك الرجل الميت. في الواقع لقد نجحت في هذا منذ البداية. إنني بالفعل أعلم مكان تلك المقبرة الفرعونية بل وأدري مقدار ما تحويه من كنوزٍ هائلة. كنت أتمنى لو أخفي الأمر عنها وأخبرها أنني لم أنجح. لكنني وأمام نظراتها التي تُعريني تحدثت.. وأخبرتها بكل شيء.

وهل كنت أقدر على إخفاء أمرٍ كهذا عنها؟

***

(5)

وتـأبي الليلـة أن تنتهـي. كفـت الأمطـار عـن هطولهـا وسـكنت الريـح قليـلًا فاسـتعاد الليـل سـكونه. أغـادر الفـراش وقـد فارقنـي النـوم وقـد بـدا لي أنـه لـن يـأتي أبـدًا. أفتـح النافـذة المبللـة وأعـب بعـض الهـواء النقـي البـارد الرابـض خارجهـا. يبـدو الجـو أكثـر صفـوًا وقـد غسـلته الأمطـار ولم تبـقَ بـه ذرة تـراب واحـدة والبيـوت جميعهـا سـاكنة لا حركـة واحـدة تنبعـث منهـا. أرمـق الأفـق السرمـدي المظلـم بخـواء ويعـاودني حنـين ورغبـة قديمـة في الذوبـان في أفـقٍ كهـذا.

كـم تمنيـت أن تتبعثـر ذراتي وتختلـط بـذرات ذلـك الأفـق الرمـادي الغامـض وأن أصيـر سرًّا آخـرَ مـن أسراره، أن أصيـر ضبابًـا وأرتحل مـع تلـك السـحب حيثـما شـاءت إلى أن أفارقهـا كقطـرات مـاء تنهمـر عـلى الأرض ثـم تمتصهـا لتدفـن للأبـد في جوفهـا.

تصفـر الريـح في بعـض الأرجـاء فأشـعر بالسـأم. وأعـود لداخـل الحجـرة وأسـتلقي ثانيـة عـلى الفـراش دون أن أتدثـر، وأغمـض عينـيَّ وأتذكـر.



وأعود بذاكرتي لتلك الأيام المخيفة التي ماتت فيها جدتي، ألن تمل ذاكرتي تقليب تلك الذكريات في هذه الليلة اللعينة.

يقولون إن من يلهو بالنار يكتوي يومًا بلهيبها. وكانت جدتي لا تعبث إلا مع النار.

كانت تمارس كل فنون السحر وطرقه المختلفة. بل وكانت بارعة في السحر الأسود. لقد عشت معها عشرة أعوام وليس عسيرًا أن أعلم خلالها ما الذي كانت تقوم به. وما كانت تقوم به رهيب بالفعل.

ينتشر بين السحرة المدعين والدجالين والأفاقين. بل لنقل إن أغلبهم كذلك. فمن بين كل مائة يدعون أنهم سحرة حقيقيون هناك ساحر واحد حقيقي والباقي كاذبون.

كلهم يوهم ضحاياه بقدراته وكلهم يختال بينهم فخرًا بقدرته على الاتصال بملوك الجان وأعوانهم. وأغلبهم في كل هذا كاذبون.

بالطبع كان هناك التنافس في النفوذ والسيطرة. كل منهم يبحث عن بسط سُلطانه في نطاق واسع يعمل فيه منفردًا. وفي سبيل هذا يلجأ لترهيب المنافسين وبث الإشاعات عنهم ومحاولة النيل من قدراتهم والتشكيك في ادعاءاتهم. بل وقد يصل الأمر أحيانًا للشجار واستئجار البلطجية لتأديب المنافس إن لم يرتدع.

وكان لجدتي الكثير من الأعداء. وكيف لا وهي قادرة على النيل من أيهم ودحض قواهم بيُسر.

كان هناك الحاج تيسير الأعور. ظهر بغتة بالجوار وذاع صيته بقدرته على فك السحر وإبراء الممسوسين وترويج العوانس



وجمع الأحبة وتفريق الأزواج وتطليقهم. لم تأبهْ له جدتي بل ولم تهتم بمتابعته. أخبرتني أن إحدى من فشل في تزويجها عن طريق حجاب صنعه لها. قد أتتها واستعانت بها وأرتها الحجاب. فضته فلم ترَ به غير هراء لا معنى له.

إذا هو كاذب ومدّعٍ آخر دخل المهنة ولن يطول الوقت حتى يفضح كذبه. حدث هذا من قبل وسيحدث طوال الوقت، فلماذا تشغل بالها بهم؟

لكنه لاحقها. راح يشهر بها ويردد أمام رواده ما ينتقص من قدراتها. ولـمّا لم يظفر من هذا بشيء وحين أدرك أنه لن ينال من جدتي هكذا لجأ للترهيب. جلب بعض البلطجية المدججين بالهراوات والخناجر والسنج، واتجه بهم في الظلام نحو شقتنا. كسروا الباب بغتة وتوقفوا في الصالة بتحفز وصرخ فيها مناديًا جدتي.

كنت صغيرًا حينها لم أتعد الثانية عشرة من عمري فلزمت حجرتي حينها، وقصت عليَّ جدتي ما جرى.

في البداية خرج إيزار من حجرتها ورمقهم بنظرته الجامدة للحظة قبل أن يشير لهم بإصبعه نحو الباب كأنما يأمرهم بمغادرة المكان. لا بُدَّ أنهم قد شعروا بالرعب من نظرته الجامدة ومن رباطة جأشه. لكن الحاج تيسير لم يكن ليتراجع الآن. فصرخ فيه بصوت حاول أن يبدو متماسكًا:

– استدع العجوز الدجالة يا هذا أو ينال منك رجالي.

وخرجت جدتي من حجرتها. رأتهم فابتسمت وتقدمت إيزار وهتفت ساخرة:



- إذا فقد أتيت إلى داري بصحبة هؤلاء الصبيان يا تيسير.

- عليكِ أن تكفي عن أعمالك وأن تغادري هذا المكان.

- وماذا لو لم أفعل. هل ستسحرني سحلية أم ستكسر رأسي.

- سوف أسلّط عليك أعواني من الجان وسوف يحطم رجالي رأسك ورأس تابعك الأخرس هذا.

وتضحك جدتي وتهتف:

- ولماذا لا تفعلون. ها أنا إيزار أمامكم. هيًّا تقدموا واكسروا. ماذا تنتظرون أيها الصبية؟ هيًّا افعلوها.

واضطرب رجاله للحظة وكان هو أكثرهم اضطرابًا. سخريتها ولا مبالاتها زادته اضطربًا لكن التراجع كان يعني المذلة، لم يكن هناك مَفرٌ من القتال فصرخ في رجاله:

- اهجموا يا رجال. هشّموا عظامها وحطموا المكان.

ارتفعت العِصي وخرجت الخناجر من مساكنها واندفع الرجال الخمسة. ولم تتحرك جدتي. فقط تحرك إيزار. وكانت الصرخات مريعةً لا تُحتمَل والعظام تتكسر والأرجل تتهشم والأعناق تدق. وفي أقل من دقيقة تكوم الرجال الخمسة وصرخاتهم لا تنقطع. حمَلَهم إيزار وألقاهم خارج البيت ثم أغلق الباب. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي نسمع فيها عن الحاج تيسر الأعور هذا.

لم يكن وحده من فعل. فقد كان هناك الشيخ رجب. شابٌ صغير لا يتعدى الخامسة والعشرين من عمره راح يعتلي منابر المساجد وقد أطلق لحية غير منتظمة. العجيب أنه اقتحم منطقة جدتي فراح



يعالج الممسوسين بالرُّقى الشرعية والقرآن كما يزعم. وبعد حين شعر أن جدتي ربما تمثل تهديدًا لسُلطانه المتنامي فراح يهاجمها.

يعتلي المنابر فيؤلب الناس على الدجالين السحرة متهمًا إياهم بإفساد العباد والكفر وعبادة الشياطين. وفي مرة أقسم في محاضرة له يلقيها في المسجد كل ثلاثاء بعد صلاة العشاء، أنه يعلم أن جدتي تقوم بالسحر وتستعين بالشياطين في عملها وأنها من أجل إرضائهم تلقي بالمصحف في الحمّام وتدوس عليه بل وأيضًا تتبول عليه أحيانًا. وبذهولٍ لا حَدَّ له رحت أتابع كيف راح يبكي وينتحب حزنًا على كتاب الله الذي يهان في بيت إحدى الساحرات وكل من حوله يحوقلون ويلعنون.

كدت أفقد وعيي رعبًا. إنه يتحدث عن جدتي حديث لا أصدق أنها تفعله، بل ويقسم على هذا. لا أدري ما مصيري في تلك اللحظة لو انتبه أحدهم أن حفيدها يجلس بينهم في المسجد في تلك اللحظة ولا أعلم كيف يمكنني مقاومة غضبهم الذي يؤجّجه ذلك الشيخ. وعلى أطراف أصابعي تسللت من بينهم وأنا أتمنى لو أصير خفيًا.

أخبرت جدتي فراحت تضحك طويلًا، ثم هتفت بلا مبالاة:

- دعك منه، إنه شاب أرعن أحمق.

لكن الشاب الأحمق لم يكف وفي صلاة الجمعة التالية راح يدعو المصليين لطرد المشعوذة الدجالة من بينهم. عليهم أن يثأروا لكتاب الله، وعليهم أن يقيموا الحد على الساحرة. لا أدري حينها كيف علم بأمري وكيف أشار بإصبعه نحوي بغتة ثم صرخ بالمصليين:

- ها هو ابنها بيننا، إنه لم يأتِ للصلاة كما يبدو. لقد أتى



ليتجسس. أتى ليدنس بيت الله. إنه نجس كجدته. اطردوه من المسجد ولا تسمحوا له بالعودة ثانية.

كان هذا الفعل أقسى ما لقيته في حياتي. وعقد الذهول لساني فتجمدت مكاني. تحمس بعض الشباب وغالبيتهم من أصحاب اللحى فاندفعوا نحوي وحملوني ليلقوني خارج المسجد. ما أفزعني أن أحدًا مما يعرفني جيدًا لم يندفع للدفاع عني حينها. كُلٌّ لزم الصمت وتركني لمصيري. وقهرًا وقد وصلت الباب محمولًا رحت أقاوم وأصرخ:

- إنه كاذب. أنا أصلي طوال الوقت. جدتي ليست كافرة. إنه هو الكاذب.

وتوالت الصفعات والركلات واللكمات على كل جزء من جسدي. لقد كان هذا وقت تأديب المشعوذين أيها الشباب. في الحقيقة لقد فعلوا كل ما أمكنهم كي يكون عقابي شنيعًا.

كسروا ضلعًا لي وامتلأ وجهي بالكدمات وأظلم العالم في عيني واجتاح الألم جسدي كله حتى تمنيت الموت. لو حاربوا الكفار بمثل هذه القسوة لاتهموا بالمبالغة. لا أدري مَن ساعدني للعودة للدار لكن جدتي كانت غاضبة بحق. صوتها تبدَّل وصار مخيفًا في هذا الوقت حتى إنني رغم آلامي ارتجفت. وغمغمت بتصميم:

- لقد تمادى ذلك الأفاق وتجاوز كل حد، سوف أجعله يندم.

وبعد أيام علمت أنه قد ندم. ندم كثيرًا وبصورة فاقت كل آمالي.

لقد أتى لجدتي لتعالجه مما ألم به.

هل تصدقون؟

هذا بالفعل ما حدث.

سكن جسده الجان وراحت النيران تشتعل في كل مكان حوله فاحترق منزله. أصابه الصرع وتملكته الأوهام والضلالات فصار يهذي ويهلوس طوال الوقت. ساء حاله واحتار الأطباء والشيوخ في علاجه. ولما يئس تذكر جدتي.

شعر أنها حتمًا مَن تسبب فيما يعانيه. ولما لم يحتمل أتى إليها طلبًا للمغفرة وبحثًا عن الشفاء. لكن جدتي لم ترحمه. أعلم أنها لم تفعل. وبعد حين غادر المكان كله وعاد لقريته تلازمه شيطانيه وضلالاته، ولم أسمع عنه هو الآخر ثانية.

لكن أم الدواهي كانت أمرًا آخرَ. وقد حملت من اسمها الكثير. كانت أكثر من رأيت دهاءً ومكرًا، وكيف لا أنعتها بهذا وقد كانت من تسببتْ بقتل جدتي.

قبل خمسة أعوام ظهرت في البيت بغتة. امرأة ريفية بدينة تخطت بلا شك منتصف العمر بأعوام عدة، وأخبرتني جدتي أنها ستمكث معنا في البيت. وكالعادة لم أحبها هي الأخرى مثلما كرهت القط الأسود وإيزار. كانت تعمل بهمة ورأيت كم تخشى إيزار وكيف لا تقربه.

علمت أنها تتعلم فنون السحر على يد جدتي. لا أفهم ما الذي دفع جدتي لقبولها ولا لماذا تعلمها أسرارها. كان هناك نفورٌ خفيٌّ ينمو باضطراد بيني وبينها ورغم أنها تبالغ في التودد إليَّ وفي تلبية مطالبي إلا أنني لم أحسن الظن بها أبدًا.



تبدو داهية خبيثة رغم بلادة جسدها وعينيها الضيقتين. وتزهو جدتي وهي تقول لي:

– الفتاة الأريبة تتعلم سريعًا. لن تمكث طويلًا معنا.

أبوح لها بمخاوفي قائلًا:

– أرى أن تحاذري منها. لا تروقني نظراتها. أشعر أنها تضمر في جوفها ما لا تبديه.

وتضحك جدتي ثم تسعل وبعدها تواصل حديثها:

– وما العجيب في أن تكون خبيثةً متشبعة للشر. لقد أتت لتتعلم فنون الشعوذة والدجل. إنها ليست قديسة إذًا.

– هذا أدعى أن تحاذري منها. صدقيني يا جدتي. أنا لا أحبها.

لكنها كعادتها تشيح بكفها العظمي ذي الجلد المتجعد وتقول بلا اكتراث:

– لا تقلق بشأنها. إنها بحاجة إليّ ومهما تعلمت فلن تصير مشكلةً لي. يمكنني التخلص منها متى شئت.

وتمضي الأيام والشهور وهي لا تفارق البيت. تخدم جدتي وتلازمها كظلها ولا أمل من مراقبتها. وبعد حين رأيت ما يريبني. تعلمون أن جدتي تغادر مساء كل خميس البيت ولا تعود قبل ظهر الجمعة. وفي ذلك اليوم وكما تفعل من حين لآخر اصطحبت قطها الأسود وإبزار معها. وقرب منتصف الليل شعرت أن هناك من يتحرك بالصالة. علمت أنها أم الدواهي لكنّ هاتفًا غامضًا دفعني للخروج لأرى ما تفعله.



وبخفة ودون أي صوت فتحت الباب ثم بحثت عنها. كانت في غرفة جدتي وكان الباب مواربًا والمصباح الكهربائي مشتعلًا وكانت أمام الخزانة تفتشها بحماس.

شعرت بالغضب. هل تفكر تلك اللئيمة في السطو على جدتي؟ وبغضب هتفت بها:

- ماذا تفعلين؟

ارتبكت واهتز جسدها البدين وسقط شيء ما من يدها. والتفت نحوي بعين واسعة بها بعض الغضب وهتفت متلعثمة:

- لا شيء. لا شيء.

- إذا ماذا تفعلين هنا؟

رمقتني وفكرة ما تتلاعب في عينيها ثم تحركت نحوي. راقبتها بحذر حتى صارت قبالتي ورأيت شفتيها تتمتمان بشيء غامض. وكنت أحمق حتى إنني لم آخذ حذري أو أبتعد عنها. كان عليَّ أن أدرك أن أمرها قد كشف وأنه لا جدوى من التظاهر بغير ذلك الآن.

وسحرتني بسحرها فمسحت ذاكرتي تمامًا.

ثم هربت من البيت بمخطوطات جدتي وكتبها. وحين عادت جدتي أدركت الفاجعة. عالجتني بسحرها وقد كان الأمر يسيرًا، طالما يتعلق بالشعوذة، ثم اتجهت لبلورتها وراحت تقسم عليها وتصيح بعزائمها لتخبرها أين اختفت اللصة أم الدواهي.

علمت مكانها فجهزت عدتها وغادرت المكان بصحبة إيزار، وغابت ليومين قبل أن تعود بأشيائها ظافرة. سألتها عن أم الدواهي فأجابت باقتضاب:



- سيمنعها شلل طرفيها من الحركة طوال الوقت. لقد استحقت تلك الغبية نقمتي وانتقامي.

لم أشعر بالشفقة عليها ولو للحظة، ومرت الشهور والسنين فنسيتها.

وتقدَّمَ الزمن بجدتي وافترسها الهرم والعجز والمرض حتى امتنعت عن استقبال الناس ولزمت حجرتها. كنت أدخل عليها كل حين فأدرك أن العجوز قد أصاب العطب عقلها. صارت تنسى ما تفعله. صارت تفعل أشياء غريبة وصارت تحدث كائنات خفية لا وجود لها.

وفي منتصف الليل يأتيني من حجرتها ضوضاء عنيفة قبل أن تصرخ. أهرع نحو حجرتها لأجد بابها مغلقًا من الداخل بإحكام وإيزار يدفعه بكتفه بجنون كي يفتح. تدخل الغرفة ليفاجئنا الدخان الكثيف وجدتي الراقدة على الأرض في إغماء والدم يسيل من كفها الأيسر. أتتبع منشأه لأكتشف أن هناك أصبع قد تم بتره.

وبينما أصرخ فيها وأحاول إيقاظها كان إيزار أكثر عملية فقام بتضميد كفها بهدوء ثم حملها إلى الفراش. وحين تستيقظ أرى الحيرة في مقلتيها. أسألها مَن فعل هذا بك، فتُجيبني بوهن:

- لا أذكر، لكنها النهاية يا بني.

وتبدأ الشياطين في المرح في المكان. أستيقظ في منتصف الليل فأجد من يقف فوق رأسي في الظلام وهو يحدق فيَّ بثبات. وحين أضيء الضوء لا يكون هناك. ثم تشتعل ملابس إيزار بغتة وبالكاد



ينجح في إطفائها. يخلع ملابسه فأرى بقعة ضخمة من الجلد المحترق تغطي ظهره.

وتنطلق الصرخات الرهيبة مجهولة المصدر في البيت. وأشعر بعشرات الأشباح من حولي وهي تصطدم بي في كل مكان.

ثم بدأت الحرائق.

المرة الأولى كانت في حجرة جدتي. كنت حينها في الحمّام ورأيت النار حين غادرته. أسرعت لنجدة جدتي. كان الحريق ممسكًا بأحد ساقيها وكانت ترمقه بخواء وكأن من يحترق بالنار أحد غيرها. صرخت فهرع إيزار إليّ وألقى على ساقها بطانية كتم بها النيران. ثم راح يطفئ الأغراض المشتعلة حولها. رقدت جدتي على الفراش بإعياء قبل أن تقول بوهن:

– ماذا هناك؟ ما الذي يحدث هنا؟

كانت رائحة الشياط واحتراق جلدها عتيقة الآن، فشعرت بالاختناق ورأيت كيف تفحم ساقها الأيسر تمامًا. فرحت أبكي قبل أن أقول:

– ما الذي يجري يا جدتي. ماذا هناك ولماذا يحدث هذا لك.

ويتولى إيزار تضميد الساق المتفحمة دون جدوى وألزم حجرتها طوال الوقت عسى أن يتكرر الأمر ثانية. وحين غفلة مني وقد غلبني النعاس أستيقظ لأرى جسد جدتي عاريًا كيوم ولدتها أمي وهي مقيدة للفراش وهناك شبحٌ أسود يفعل في أناملها شيئًا ما لم أتأمله. أصرخ فيه فيلتفت إليّ بوجه أسود بلا ملامح ويصدر فحيحًا كفحيح الثعابين ثم يندفع نحو الحائط فيختفي به.



أهرع لجدتي وأغطيها وأرى الأنامل السوداء اليابسة تمامًا. ماذا فعل ذلك الشيطان بجدتي؟ ويأتي إيزار ككل مرة ويرمق أناملها السوداء بحيرة ولا يفعل هذه المرة شيئًا.

لا أدرى من يمكنني أن أستعين به ولا ماذا يحدث هذا لجدتي، وأتساءل هل ضعف تحكم جدتي بالسحر والشياطين وقد حان وقت العقاب ودفع الثمن.

وفي اليوم التالي أستيقظ على طرقات بالباب. أتجه لفتحه وأنا آمر إيزار ألا يترك جدتي بمفردها.

وهناك كانت أم الدواهي أمامي. كانت سليمة من غير سوء وعلى شفتيها ارتسمت أكبر ابتسامة خبيثة لئيمة رأيتها في حياتي. كيف برئت من شللها الذي أخبرتني جدتي به وهل أتت لتشمت بها. شعرت بالحنق فقلت بخشونة:

- ماذا تريدين؟

- علمت بما جرى لجدتك فأتيت لأعودها.

كيف علمت بما لم نخبر به أحدًا. وهل لها يدٌ فيما يجري مع جدتي؟. وتبرق عيناها كأنما تقرأ ما يدور بعقلي، قبل أن تقول بصوت كالفحيح:

- لقد آذتني يا شريف بشدة. لن تفهم أبدًا ماذا يعني أن يصير المرء عاجزًا مشلولًا.

- لكنك قد سرقتها قبل ذلك وطعنتها في ظهرها.

- وقد آذتني بعدها كثيرًا، وها قد حان وقت الحساب يا فتى.



واشتعلت عيناها بتشفٍّ وأنا أرتجف في فزع أمامها واستطردت:

- علمت بأنها لم تعد كالسابق. تقوم بعمل التعاويذ الخاطئة وتستدعي الجان ولا تصرفهم. لم أكن يومًا حمقاء ولا غبية. لقد تعلمت منها الكثير وعرفت بعد ذلك ما هو أعظم. لقد ضعفت قوتها ووهن تأثير سحرها فعرفت كيف أعالج نفسي من سحرها. ثم رحت أفكر كيف أنتقم لنفسي.

وأطلقت ضحكة ساخرة صاخبة لم أسمعها منها من قبل وأنا لا أدري بما أجيبها قبل أن تكمل:

- أخبرني أعواني بما يفعلونه بها. إنها تحترق وتتعفن حية أليس كذلك. لا تدري كم يطربني هذا وما زال في جعبتي المزيد. العجوز الشمطاء ما زال بانتظارها الكثير من المرح الذي يمكن أن أوقفه وأن أدعها تموت في هدوء لو عقدنا صفقة صغيرة.

- ماذا تريدين؟

- كتبها ومخطوطاتها وأغراضها. كل شيء تملكه. أعطني تلك الأشياء وسأدعها وشأنها.

في الواقع لا تهمني تلك الأغراض ولا أعتقد أنها ستنفع جدتي ثانية. هي أغراض سأتخلص منها يومًا ما بلا شكٍّ. لكنني كذلك لا أثق بتلك الشيطانة قيد أنملة. ما أدراني أنها لن تؤذيني بعد ذلك وما أدراني أنها ستكف شرها عن جدتي بعد. لن ترث جدتي أبدًا وقد آذتها هكذا ووجدت نفسي أصرخ في وجهها بغضب.

- اذهبي للجحيم. لن تنالي شيئًا ما دمت حيًا.

وأغلقت الباب في وجهها ومن خلف الباب وصلني تهديدها:

- بل جدتك من سترى الجحيم قريبًا وأعدك أن تلحقها بعد ذلك.

وعدت لجدتي أرتجف. كان ترمقُ الغرفة بحَوَاءَ فقلت لها باكيًا:

- إنها الثعبان الذي ربيته في المكان يا جدتي. إنها اللعينة أم الدواهي. إنها من يفعل بك كل هكذا. طالما حذرتك منها لكنك لم تستمعي إليّ. ليتك فعلتي يا جدتي. ليتك فعلت.

وبرقت عيناها بغتة وقالت بصوت به بعض الحيوية:

- أم الدواهي؟! توقعت هذا يا بني. هذا يعني أن عليّ التحرك بسرعة

وهبت من الفراش فصحت بها محاولًا منعها وقد اعتقدت أنها تهذي كالعادة، لكنها قالت في حزمٍ:

- لا تقلق يا بني. عليّ أن أقوم بحمايتك يا فتى. لن ينتهي الأمر بموتي ولو لم أتحرك الآن فربما آذتك.

وابتلعت ريقها بصعوبة وأكملت بابتسامة واهنة:

- حان الوقت لتعلم تلك اللعينة أن الحية العجوز لا زالت تملك بعض السم في أنيابها.

ونادت إيزار فهرع يساعدها. رسم على الجدران الكثير من الرسوم والنجوم والمثلثات. امتلأ المكان بالبخور والدخان وعاد صوت جدتي قويًا وهي تُردد تعويذتها الأخيرة. وبعد أن انتهت تهالكت على الأرض.. حملها إيزار وأعادها للفراش فقالت لي:

- الآن لن تقدر عليك. لكن حافظ على أغراضي، إياك والتفريط فيها. إنها ميراثك فلا تتركه لأحد. عدني بهذا يا شريف.



ووعدتها.

وفي اليوم التالي اشتعلت بها النار بغتة. تحول جسدها في لحظة لأتون محترق. الغريب أنها لم تمت على الفور. بل صرخت من بين النيران المتأججة، وهي ترمقني بعيون بارزة باتساعها:

- سأعود ثانية لأنتقم.

وذابت عيناها وذاب جلدها وماتت. وكما اشتعلت النيران بغتة خبت مرة واحدة دون أن تمس أي شيء حولها. وعلى الفراش رقد جسد جدتي مسودًا متفحمًا. وأتى إيزار ومن خلفه القط الأسود. رمقا الجسد الجامد للحظة ثم غادر إيزار المكان دون أن يفعل شيئًا بينما اختفى القط من أمامي.

ثم دفنت جدتي في بلدتنا الريفية القديمة، واختفى إيزار تمامًا.

طالما تمنيت الانتقام لجدتي من تلك الداهية. وما زلت أتذكر وعيد جدتي بالعودة.

ترى هل تعود حقًا؟

من يدري!!

***



(6)

وما زالت الليلة الكئيبة جاثمة على روحي تأبى الرحيل. أخوض مع النوم معاركي الخاسرة دومًا، فلا النوم يأتي ولا عقلي يهمد. يسطع البرق بغتة خلال النافذة الزجاجية فأرى عشرات الظلال التي تتوارى خلفها منذرة ومترقبة، ويدوّي الرعد كقرع عشرات الطبول البدائية، فأنتفض بلا سبب، ويظل قلبي يضطرب. ممَ أخاف؟

أسأل نفسي وأنتظر أن تأتي السكينة مع الإجابة، وأدرك أنني لا أهابُ شيئًا. أو لنقُل أنني لم أعد أخشى أيّ شيء. قبل زمن كنت أخشى كلّ شيء. الظلام والظلال والنداءات الغامضة في جوف الليل وذلك المجهول القادم من خلف الأبواب المغلقة، بل وحتى الجرذان الحقيرة المتأهبة لقضم حنجرتي أو إصبع من قدمي، والكلاب الضالة التي تطاردني في الشارع ليلًا.

كنت أخشى الموت وأنا أستعيد وجه أبي البارد الشاحب الخالي من الحياة وأنا بمفردي معه في حجرته ولا أدري أنه لا يجيب ندائي لأنه قد مات.



يلمع البرق ثانية ويدوي الرعد، ومن خلف الباب المغلق بإحكام تأتي طرقات بيد رقيقة، ويتبعها النداء:

- شاكر، لماذا تغلق الباب، أريد أن أقضي الليلة معك.

إنه صوت ريم. حبيبتي وزوجتي. في وقت آخر لم أكن لأنام من غيرها أو أفارقها لحظة واحدة وقد تزوجتها. لكن هذا لن يكون الآن.

أنتفض في فراشي وأنا أدرك أنني من تسبّب في ضياعها، و أنني من أفسد كل شيء.

ففي النهاية صارت ريم زوجة لي، ورغم هذا لا يمكنني أن أقربها أو أحتضنها!

كيف يمكنني أن أفعل وفي جوفها تستقر روح جدتي الراحلة. لقد ذهبت روح ريم الشابة وأتت روح جدتي الملعونة لتحتل جسدها وتزيحها منه.

وأنا من تسبَّبَ في كل تلك الفوضى

وعاد عقلي ليمارس هوايته الأثيرة.

عاد ليتذكر!

بدأت النهاية باتصالي غاضب مليء بالرجاء. كانت ريم وراحت تنتحب وهي تصرخ عبر الهاتف:

- أنت في مكانك لا تتحرك ولا تفعل أيّ شيء. بل تكتفي بتركي في وجه المدفع لأواجه طلقاته وحدي. لقد سئمت هذا.



- وأنا لست أفهمك. تحدَّثي بهدوء من فضلك كي أعي ما تتحدثين عنه. ماذا هناك؟

- يريدون إنهاء ارتباطنا. هل فهمت. يرغب أبي وأمي في فسخ الخطوبة.

كانت هي المرة الألف التي يحدث فيها هذا. لم تكن خطبتنا أبدًا مما يروق لهم. لا يروقهم ملابسي وهندامي، ولا تحب أمها حديثي الذي تراه شعبيًا ينتمي للحواري والأزقة، ويراني أبوها مفلسًا تافهًا لا شأن له أو مستقبل، وهو لا يدري أن معي من مال جدتي الذي لا اقربه أكثر مما معه بكثير.

كان أبوها يعد ارتباط ابنته الوحيدة بي ضياعًا لمستقبلها. في الواقع لولا دلالها وعنادها وتمسكها بي لما استمرت العلاقة بيننا يومًا واحدًا. لكنهم لم ييأسوا. وطوال الوقت كانوا يرمونني بالسخافات ويعاملوني بجفاء لا يداروه.

- وما الجديد هذه المرة؟ عريس آخر؟

قلتها بنفاد صبر، فأجابت بغضب أكبر:

- وكأنك لا تبالي. حسنًا سأخبرك بالجديد لكني لن أدافع عنك بدلًا منك هذه المرة. سأرى ما سوف تفعله. لقد وصلهم أن جدتك كانت دجالة تمارس السحر. لقد سألتني أمي هل كنت أعلم. صمتُّ ولم أدري بما أجيب.

يا إلهي. متى ينتهي هذا العناء. ما شأني أنا بجدتي وما جريرتي



في أن تكون الشيطان نفسه. أنا شيء وهي شأن آخر. متى يكف الناس عن محاسبة الأبناء في جرائم آبائهم.

- أخبريهم أنها قد ماتت منذ عامين.

- وما أدراك أنني لم أفعل. لكن أبي أقسم ألا يتم ارتباطنا بعد هذا اللحظة واحدة. سوف يتصل بك لتأتي لاستعادة هداياك وأشيائك.

- لن آخذ شيئًا، ولن أتركك. سوف أتزوجك رغمًا عنهما لو اعترضا طريقنا.

- إذًا أخبرهما بهذا بنفسك. برهن لي أنك تُريدني.

وتغرق في نحيبها. تعودت أن أدعها وشأنها حين تفعل. تعلمت أن أنتظر حينها حتى تنتهي من بكائها وتعود لرشدها. في الواقع تفقد ريم تعقلها حين تغضب وتصير أقرب للمجنون لو بكت ولن تسر أبدًا بما ستفعله معك لو حدثتها في ذلك الوقت أو حاولت تهدئتها.

انتظرت بضع دقائق حتى هدأت فسألتها السؤال الذي جال بخاطري:

- لكن من أخبرهما بشأن جدتي؟ هل عادا للسؤال عني.

- إنها امرأة عجوز كريهة. عدت من الخارج لأجدها معهما. رمقتني بعينين مرعبتين مظلمتين وابتسمت في وجهي بفم بلا أسنان ابتسامة لم أحبها، قبل أن تواصل حديثها إليهما. فكرت ان ألوذ بحجرتي حتى تذهب لكن أمي نادتني وطلبت إليّ الجلوس إليهم، ففعلت. ظلت تتحدث أن جدتك كانت كريهة، وكيف



كانت دجالة، وظلت طوال الوقت تمارس السحر والشعوذة، كان الغضب حينها يغمر أبي وفي النهاية أشارت إلى أنها تعتقد أنك تواصل -سِرًّا- عملَ جدتك. ألقت قنبلتها تلك في وجوهنا وانتظرت للحظة قبل أن تقول بمكر، أنها غير متأكدة من هذا الأمر لكن البعض يؤكده.

اشتعلت نفسي بالغضب، مَن تلك الشيطانة التي تسعدها كما أرى أن توقع بيني وبين حبيبتي هكذا. ما شأنها بي ولماذا تزعم أنني أمارس السحر وما جدوى محاولاتها تلك. أشعر بالاختناق وتحتبس الكلمات في حلقي ويصلني أنفاس ريم المتلاحقة توترًا. ومرة واحدة تقفز جدتي إلى مخيلتي. وأقول على الفور:

- هل يمكنك يا ريم أن تصفي لي تلك المرأة؟

- كانت طاعنةً في السن. أظن انها تجاوزت الثمانين من عمرها. قصيرة الجسد متهالكة الجسد تتكئ على عصا لها مقبض غريب وترتدي جلبابًا كثير الألوان الزاهية.

كأنها تحدثني عن جدتي. وأسألها بانفعال:

- وهل كان على كتفها الأيسر وشم طائر أزرق؟

- بالفعل كان هناك واحد؟ كيف علمت هذا؟ هل تعرفها؟

ويسقط قلبي في قدمي. إنها جدتي. أو لنقل إنه شبحُها أو أحد شيطانيها وقد تشكل على هيئتها. أشعر بالقهر والضعف ولا أفهم ما الذي تصبو إليه هذه المرة ولماذا تلاحقني من قبرها هكذا.



لماذا لا تدعني لحياتي؟ ولماذا لا تقتنع بموتها كما يفعل البشر أجمعين؟!

لماذا تريدني أن أمارس عملها الذي انتهى بموتها، ولماذا تعتقد أن عليّ أن أكمل عمل العائلة وأن أمارس السحر كما فعل الأسلاف منهم. لقد فعلوه برغبتهم الكاملة كما أعتقد، ومن حقي أن أقرر مصيري مثلهم وقد فعلت. لن أقوم بالأمر وسأرفضه كاملًا كما رفضه أبي من قبل.

لكن هل كان هذا موقف أبي حقًا وهل هي رغبته؟ يراودني الشك وأنا أراه في كل يوم في أحلامي يحثني على طاعة جدتي، وأستيقظ كل مرة وأنا غير مصدق. هل يكون هذا الذي يلازم أحلامي أبي حقًا؟ أيكون هذا أبي الذي اعتزل أمه كل هذه السنين حتى مات بعيدًا عنها كي لا يشاركها الأمر. أيغير الموت قناعات المرء أم أن الأمر كله خدعة وألعاب شياطين تتمثل بصورة أبي وتزورني في أحلامي لتقنعني بما لن يكون؟

وأذهب إلى بيت ريم. الأب المتحفز والأم المتحسرة والصراخ الذي لا ينقطع، وأشيائي التي تلقى في وجهي ثم الطرد. كل هذا بلا ذرة تعقل واحدة.. كل هذا وريم على باب حجرتها ترمق ما يدور بعجز، ودموع لا تنقطع، وصمت مرير.

أتحرك في الشارع بلا هدى، أشعر بغتة بغربة لا حد لها رغم أنني أنتمي لهذا العالم. أفتش في وجوه الناس عن سعادة لا أجدها في نفسي وأرمق المحيين من حولي في حسرة من لن يعيش تلك اللحظة ثانية.



وفي نهاية الشارع الطويل وعلى ناصيته كان إيزار بانتظاري. يلتصق ظهره بالحائط وقد عقد ذراعيه أمام صدره وراح يرمقني بعينيه الزجاجتين بثبات. هذه المرة حرَّكَني الغضب نحوه، وقد أزمعت الشجار. ما الذي يفعله هذا اللعين هنا ولماذا يلاحقني هو الآخر، وهل وصلت جدتي إلى بيت خطيبتي عن طريقه؟ أسئلة عليه أن يمنحني جوابها. تناسيت جسده الضخم وقوته المذهلة وأفعاله الشيطانية التي طالما أرهبتني وأفقدني الغضب كل تعقل وقررت الشجار. أمسكته من ياقته وقد انتبه السيارة إلينا وصرخت فيه:

- أخبرني بما تريده أنت الآخر. لماذا أنت هاهنا؟

ترتجف عيناي من عينيه الميتتين اللتين لا ترمشان ومن وجهه الجامد كالخشب وألهث في توتر وما زلت قابضًا على قميصه ثم يتحدث، لا يفعل هذا أبدًا ولا ينطق حرفًا واحدًا، لكني أعلم أنه ليس أخرسَ:

- وعَدتَ جدتك أن تعيدها وهي تنتظر. إنها تحذرك أن تخذلها هذه المرة!

جدتي.. جدتي.. في كل مرة هي جدتي.

إنها ميتة والموتى لا يعودون. فأي شيطان رجيم هذا الذي يتلبس روحها ويرغب في عودتها، كيف يتصل إيزار بها وكيف تجسدت أمام أهل خطيبتي لتثير سخطهم عليَّ، ولماذا لا تبحث عن آخر يعيدها ويكمل عملها؟

يزيح إيزار كفي عن قميصه ببساطة ثم يدخل الشارع



المجاور. أتجمد بمكاني لحظة ثم أتحرك حيث سار. لكن الشارع الطويل كان فارغًا منه. لقد اختفى فيه كأنما تبخر في الهواء.

لا أجد في نفسي رغبة في الخروج من البيت، وأتجاهل أي اتصال من أصدقائي. أرقد على فراشي وأحاول أن أفكر في حلٍّ يعيد ريم إليّ. لا أتخيل أن أستمر في الحياة من غيرها، ولن أحتمل فراقها. لكنها لم تتمسك بي هذه المرة. لم تعترض على ما قام به أبواها ولم تشاركني الدفاع عن نفسي ولاذت بصمتها.

هل وافقتْهما فيما يريدان؟

وهل صدقت تلك الوشاية اللعينة عني؟

يفنيني التساؤلات وأجرب الاتصال بهاتفها لأجده مغلقًا. أجرِّب مرة بعد مرة دون جديد. أركل الأغراض من حولي بغل ويردد الصدى صراخي المجنون وأنا أسب جدتي:

- «عليك ألف لعنة أيتها العجوز الشمطاء.. أجل.. عليك اللعنة»

لكن الصمت من أجابني.

ينهكني التفكير فألجأ للنوم الذي أتاني متعجلًا هذه المرة، كأنما كان ينشدني.

وكانت جدتي في الحلم، أصرخ فيها:

- ما الذي فعلتِه بي أيتها اللعينة؟

وتجيب بغضبٍ مماثلٍ مهدِّدٍ:



- لقد نكثت بعهدك لي. أنقذتك من مثيلك يومًا ووعدتني باستكمال ما كنت أقوم به. هل نسيت؟

لكنني لا أبالي كما لم أنسَ. ليتني ما وافقتها في تلك المرة. ليتها تركتني للفناء والعدم. ليتها تركتني كي لا ألاقي هذه الآلام التي تعصف بي.. وأقول ودموع تنحدرُ:

- لكنك دمرتِ حياتي، لماذا تفعلين كل هذا بي؟

وتضحك بجنونٍ وقد انتفش شعرها الفضي الثائر حولَ وجهِها فصارت كالغيلان، وتقول لي:

- هذه هي البداية فقط. وما زلتُ أخبئ لك المزيد. هذه المرة لن تذهب وتموت بغيرِ ألمٍ. هذه المرة سيكون الألم كثير.

وينتفض قلبي في صدري ويثور. وأشعر بالرعب وقد أخرجت من جرابها دمية بلاستيكية جامدة. تدير وجهها نحوي لأدرك أنها تشبهني تمامًا. تلقيها في وجهي وتقول بصوت كالفحيح:

- هذه ستكون أنت.

أتراجع للخلف وأرى الدمية تتمدد بغتة. تستطيل أطرافها وتتضخم رأسها وتتحرك عيناها الزجاجيتان نحوي. وأصرخ حين تحدثني بغتة:

- لقد عدت يا شريف، هل تذكرني.

لقد تحولت لصورتي تمامًا ودبت بها الحياة. وبينما تتحرك نحوي أشعر بهلعٍ لا حدودَ له فأصرخ. وأفيق لأدرك أني ما زلت على فراشي. أرقب الظلام للحظة ثم أنهض لاهثًا. أتحسسُ شيئًا جامدًا يرقد على الفراش بجواري وأشعر أني أعرفه.



أضيء المصباح وأكتشف أنني أقبض على دمية بلاستيكية تشبهني. نفس الدمية التي ألقتها نحوي جدتي في الحلم. ألقيها بعيدًا فتتوارت أسفل الفراش وما زلت أنتفض، وأدرك الكارثة.

لقد جاءت الدمية من حلمي.

صارت الكوابيس حقيقية وها هي تتجسد. يطول ترقبي للدمية التي اختفت، ثم أنحني أسفل الفراش لأفتش عنها. لم تكن هناك. اختفت ثانية ليزداد رعبي. هل توهمت تلك الدمية وهل صرت أهذي أم أنها كانت موجودة بالفعل.

أشعر أنني أقترب من الجنون حثيثًا وأفكر في الانتحار. الموت وحده يحمل الراحة والهروب من تلك الحياة القاسية. لكن الانتحار كفرٌ ولن أهرب من هذا العذاب إلى الجحيم الحقيقي.

تتكرر الأحلام وفي كل مرة أرى أبي الذي يأمرني بطاعة جدتي أو أرى جدتي التي تحذرني من عنادي. وتظهر في البيت الدمية من حين لآخرَ ثم تختفي بغتةً، وفي كُلّ مرة يتضخم حجمها، بينما ما زال هاتف ريم مغلقًا قد انقطعت عن الذهاب إلى الكلية ورفضت التحدث إلى أيٍّ من صديقاتها.

وبعد أيام كانت تتصل بي. كانت محبطة يائسة وقالت برجاء:

- افعل أي شيء أرجوك. سيزوجونني بابن عمي الذي لا أحبّه. افعلها لو كنت تحبني حقًّا. افعل أي شيء، استعن بسحر جدتك حتى، لو أن هذا يفلح، لكن لا تتركني لهذا الشقاء.



وتغلق الهاتف دون أن تنتظر ردي. وأتخيلها في ثوب الزفاف بجوار ذلك الفتى المعقد. ابن عمها الذي أكرهه أنا الآخر لأنه كان يومًا يلاحقها. تهلكني الغيرة فأفكر في قتله ثم الهرب بها. لكن هل يفلح الأمر؟ ألن تتعقبنا الشرطة، وإلى أين يمكنني أن أذهب بها. عليّ أن أفكر في حلّ آخر. لكن عقلي يفشل في الوصول لأيّ حلّ. ثم أشعر بالإنهاك بغتة ويأتي النوم.

وككل مرة يأتي النوم بغتة، تكون هناك في أحلامي جدتي بانتظاري كأنها هي من يبعث بالنوم لي لتحدثني. كانت ترمقني بتشف وأرمقها بخواء قبل أن تتحدث:

- يمكنك الحصول على خطيبتك قبل أن تكون لغيرك. يمكنني المساعدة.

لا أجيبها ولا أرغب في مشاركتها تلك اللعبة الجديدة التي تريد القيام بها. لكنها تقترب مني وتحيط وجهي بأناملها الضامرة وتهمس في أذني.

- في اللفافات تجد الحل. فتش عنه.

وتختفي بغتة وأفيق. أتذكر ما قالته وأشعر باستسلام لا حد له. لقد قاومت طويلًا، وخضت مع نفسي ومع جدتي عشرات المعارك كي لا أطاوعها لكنني في كل مرة أخسر. تلاحقني الهزائم طوال الوقت ولا تمل جدتي أو شيطانيها من افتعال المزيد من الخسائر لي.

لقد وصلت للنهاية وحان وقت الاستسلام. لو خسرتُ ريم



هذه المرة فقد خسرت كل شيء، لن أحتمل أبدًا الخواء الذي ستتركه في نفسي برحيلها للأبد عني ولن تستقيم الحياة ثانية. لكن هذا قدري ولأرضخ له طالما سيبعد الأحزان عن نفسي وطالما يمكنه أن يأتيني بحبيبتي.

أتجه لغرفة جدي. كانت مضاءة مفتوحة كأنها هي بانتظاري. اللفافات والمخطوطات على البساط الصوفي مفضوضة بانتظار أن أقرأها. أجلس في هدوء وللمرة الثانية أطالعها ثانية.

تنجلي عشرات العوالم لعيني. أرى أفاقًا أخرى من المجهول وأكتشف قوى مهولة بين يدي لا أتصورها. أدرك ما يمكنني القيام بتلك المخطوطات الرهيبة لو شئت وأشعر بسكينة في نفسي لا حد لها.

أعثر على ضالتي في مخطوطة ما. كانت طلسمًا لتقريب الحبيب والظفر به. أحفظها عن ظهر قلب، وأجلب الأغراض اللازمة للقيام بها وفي منتصف الليل والقمر بدر مكتمل أنفذها.

يتصل بي حماي ليسألني إن كنت ما زلت غاضبًا منه. وتلتقط زوجته الهاتف منه لتخبرني أنها تدعوني للغذاء. أحدث ريم فتصرخ في فرح أنها لا تصدق ما جرى. لقد طرد والداها ابن عمها وأخبراها أن زواجها بي سيتم كما خططت من قبل. تسألني ما الذي فعلته فأجيبها بهدوء:

- قمت بما طالبتني به.

أذهب لبيتها وأقرر الزواج السريع. لا أدري كم يستمر تأثير



تعويذتي عليها وكم يحتد مفعولها. أذهب إلى البنك لتسلم ميراثي من جدتي. كان كثيرًا للغاية. كانت ملايين كثيرة لا تُصدَّق. أشتري أثاثًا حديثًا للبيت كله دون أن أقرب حجرة جدتي. وبعد شهر كانت في بيتي.

أنهل من السعادة وأعبها في نفسي عَبًّا وأنسى حجرة جدتي وعهدي معها ومخطوطاتها المثيرة. لكن ريم تحدثني عن غرابة أطواري.

تحدثني عن كلماتي المبهمة في جوف الليل وأنا نائم بجوارها. تخبرني بأنها لا تجدني أحيانًا على الفراش بجوارها وحين تفتش عني تجدني قابعًا بحجرة جدتي أطالع كتبًا صفراء قديمة ومخطوطات بالية متهرئة.

تسألني في دهشة: لماذا أبدو غريبًا حينها، ولماذا أطالبها في كل مرة بأن تلزم حجرتها حتى أعود لها.

وتبدي ذهولها من تعاملي معها في اليوم التالي كأن شيئًا لم يكن.

تخبرني وأنا لا أصدق أنني أقوم بكل تلك الأمور التي لا أذكرها. لكنني لا أبالي كثيرًا. لا أدري لماذا لم أهتم حينها بما تذكره. فقط كنت أحتضنها وأحاول طمأنتها أن كل شيء على ما يرام دون أن أفكر في ما يحدث لي.

هل كان عقلي الباطن هو ما يدفعني لفعل كل تلك الأمور.

هل لامست أعماقي القوة الهائلة التي أدركتها في جوف تلك المخطوطات فاشتهتها وراحت تدفعني رغمًا عني لتعلمها والحصول عليها.

وعدت يومًا من الخارج لأجد ريم قابعةً في الدخان الضبابي الكثيف في حجرة جدتي. أرمقها بحيرة وهي تجلس كما كانت جدتي تجلس أمام بلورتها القديمة فأشعر أن حدثًا سيئًا قد وقع.

أسألها بخوف:

- ما هذا الذي تقومين به؟

وتجيبني بهدوء:

- ألا تدرك مَن أكون أيها الفتى؟

لكنني أدرك من تكون، وأنا أتمنى أن أكون مخطئًا ولا أصدق. وأندفع نحوها وأنا أصرخ بيأس:

- كلا ليس ريم. ليس ريم..

لكن قوى رهيبة أجلها راحت تقيدني بغتة وتجمدني مكاني، وتقول جدتي مستعينة بحنجرة ريم وصوتها الذي أعشقه:

- لقد عدت يا شريف. ظننت هذا يسعدك. يا لك من عاق حقًا!

- ليس ريم أيتها الملعونة.. خذي جسدي نفسه لكن ليس ريم!

وتضحك وهي تجيبني:

- أعلم أنك تحبها. ولهذا أعدك ألا أمسها بسوء، بل وسأدعها تستعيد جسدها من حين لآخر كي تلقاها. سوف أغادر جسدها كلما احتجت لها.. هل هذا يرضيك؟

بالطبع لا يرضيني إلا أن تعود زوجتي وحبيبتي لي كاملة:



لماذا اخترت جسدها بالذات لتسكنيه بروحك الدنسة، بل وكيف أمكنك الوصول إليه. وكأنها تقرأ أفكاري العاجزة التي تنهشني تجيبني:

- لقد ساعدتني طوال الوقت. لقد فعلت كل جهدك لتعيد جدتك الحبيبة ثانية. كنت طفلًا بارًا هذه المرة يا عزيزي.

وأتذكر تصرفاتي الغريبة التي كانت ريم تخبرني بها!

يا للعنة!

إذا لم يكن عقلي الباطن هو ما يدفعني لمطالعة مخطوطاتها في جوف الليل. لم تكن نفسي تشتهي قوة السحر كما تخيلت. لقد كانت شياطين جدتي هي ما يدفعني لاستعادتها.

والآن عادت لتزيد آلامي وقد استحوذت على جسد حبيبتي.

يتملكني ككل مرة اليأس وأنا ما زلت مقيدًا في مكاني بقواها الخفية، فأنخرط في البكاء وتظلم الدنيا في عيني. وتقول ريم أو جدتي لي:

- أرى أنك بحاجة لأن تنعم ببعض الراحة، سأدعك لتعود لحجرتك.

وعلى باب الحجرة كان إيزار كعهده منتصبًا. لم أفكر أبدًا متى عاد وما الذي دعاه للعودة. قادني نحو حجرتي فتبعته في صمت.

وعلى الفراش البارد رقدت، بعد أن أغلقت حجرتي بالمفتاح وكأنني أخشى ريم كما كنت أخشى جدتي.



أعلـم أنني لـن أقـدر عـلى جـدتي كـما أعلـم أنني لـن أخضـع لسـحرها وسـلطانها. عـليَّ أن أحـارب الكـون كلـه لـو تطلـب الأمـر لاسـتعيد حبيبتـي ثانيـة.

عليَّ أن أجد وسيلة ما لترحل روح جدتي عن جسدها.

عليَّ أن أصحح جنايتي التي اقترفتها.

لكن هل يمكنني القيام بكل هذا؟

ليتني أعلم.

❊ ❊ ❊

تمّت

حكايات شتوية

عن أسرار المرايا المريعة وتوأمي الذي ظهر في حياتي بغتة وذلك الحب الغريب لريم والأحجبة الشيطانية التي ورثتها وذلك الرفيق الغريب المخيف ايزار ثم ذلك القط الأسود وسره العجيب وأخيرا حكايتي مع جدتي وأغراضها اللعينة.. إنها حكاياتي الشتوية التي أتلوها للمرة الأولى، فهل أنت مستعد؟

غلاف : أسامة علام



